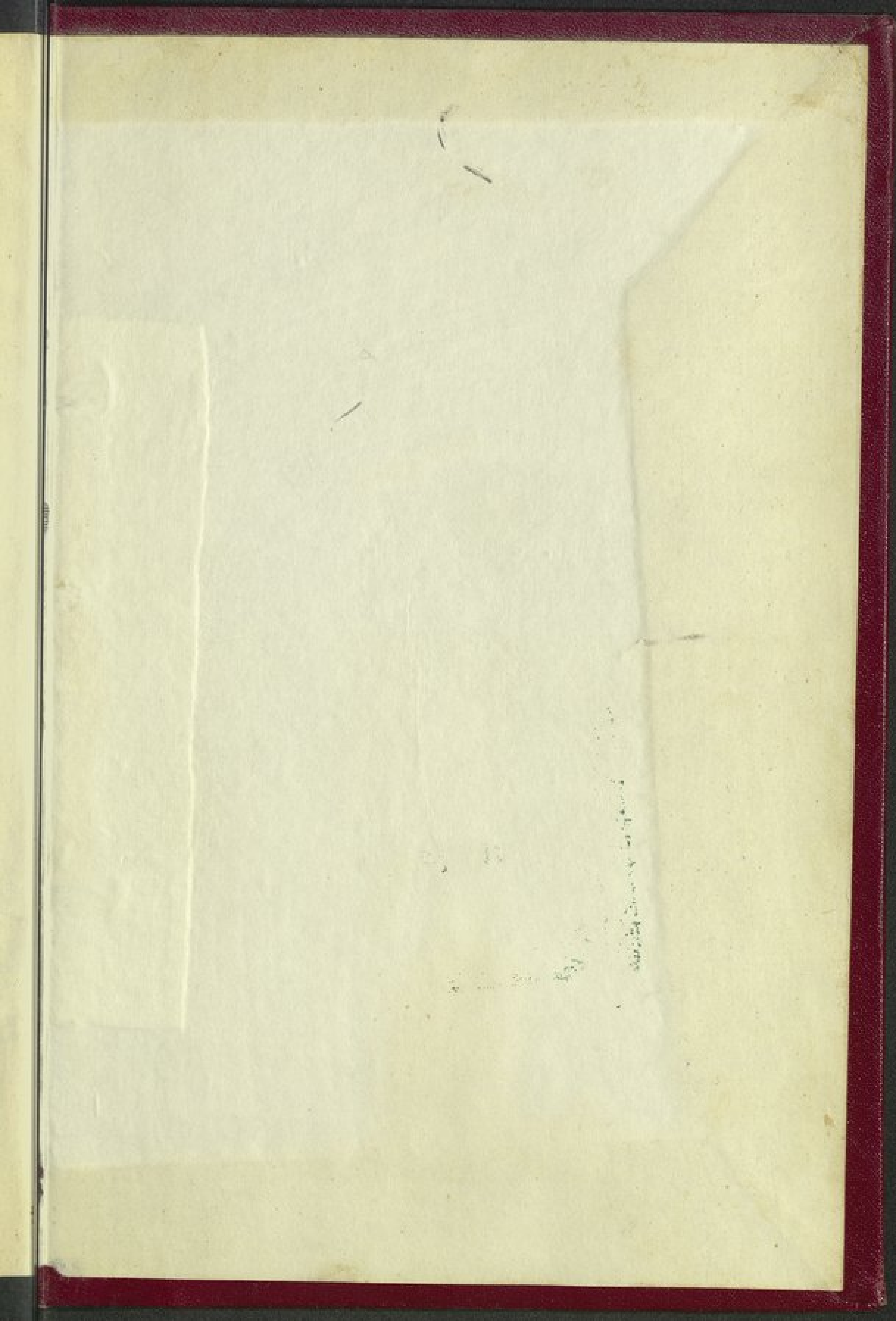
الميرغني

لمعات من التصوف



هذا هو النور



تأليف

حامد محمود علي إسماعيل الزرعتي

الطبعة الأولى سنة ١٣٦٩ هـ

مطبعة شباب محمد صلى الله عليه وسلم

٢٢ شارع البركة الناصرية - السيدة زينب مصر

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

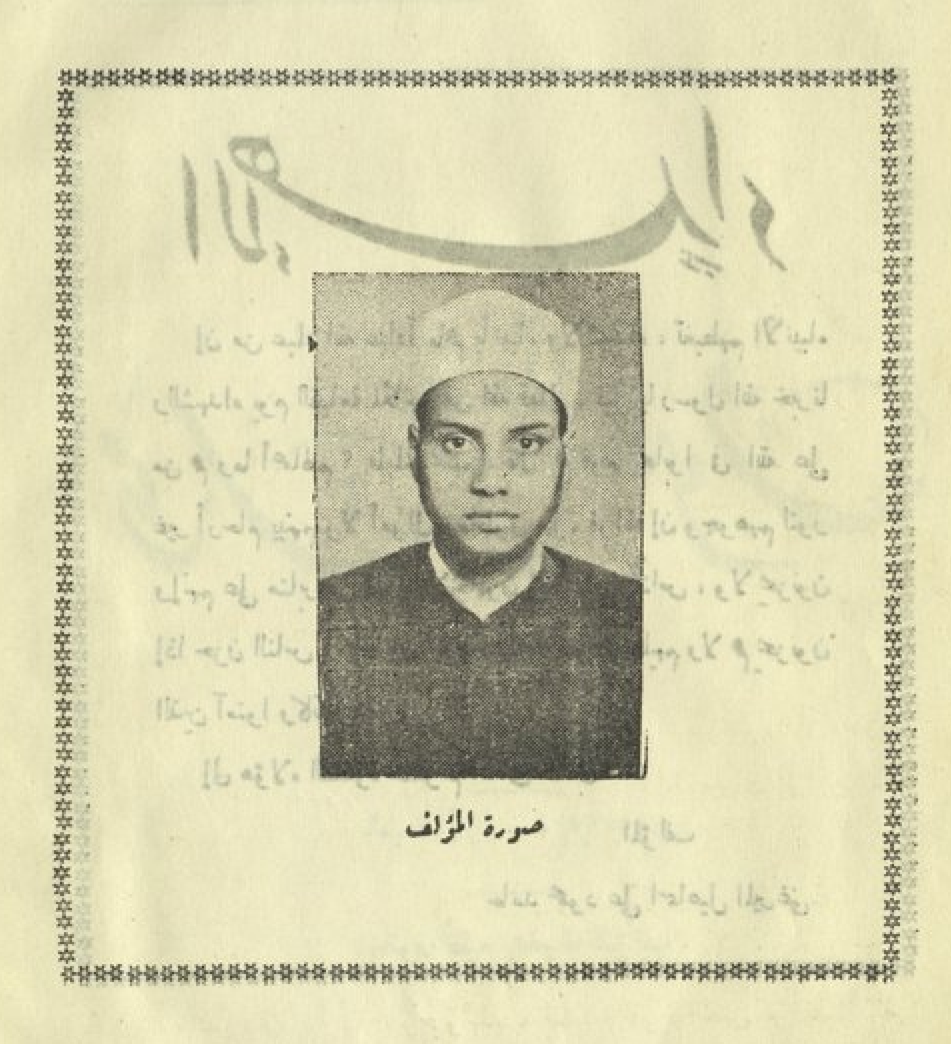
الإهداء

إن من عباد الله عباداً ماهم بأنبياء ولا شهداء ، تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى ، قيل يا رسول الله خبرنا من هم وما أعمالهم ؟ فلعلنا نحبهم ، قال هم قوم تحابوا فى الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها ، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور . لايخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس .. ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون .

إلى هؤلاء الصفوة الكرام أهدى كتابى

المؤلف

حامد محمود على اسماعيل الميرغنى



صورة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله ، وأستعينه ، وأستهديه ، وأستلهمه الرشد والتوفيق ، فهو نعم المولى ونعم النصير .

وأصلى وأسلم على سيد أنبيائه وخير أصفيائه سيدنا ومولانا محمد أفضل من عرف ربه فكان فى سمو روحانيته وعلو همته أعظم مثلا وأعلى مقاما .

وعلى آله وأصحابه وأتباعه الذين زكوا أنفسهم فأفلحوا وتواصوا بالصبر والحق فكان لهم طيب الأحدوثة فى الدنيا وجلال المثوبة فى الآخرة .

اللهم أكرمنا بكرامتهم ووفقنا إلى أعمالهم واهدنا صراطهم وألحقنا بهم فإنك خير مسئول وأكرم مأمول .

وبعد : يحلو لكثير من الباحثين والدارسين أن يهاجم التصوف والصوفية ، ويسرف فى التهكم والتجريح وينكر عليهم كل فضل ، ويجردهم من كل نبل .

فإذا ما ذكر التصوف ذكر بإزائه البطالة والكسل والإخلاد إلى الراحة والتعرض للسؤال .

وإذا ما تناول الصوفية سال قلمه بعبارات التهكم بأساليبهم وصوّرهم فى صورة الدراويش ، الذين يلبسون المرقعات وتحيط بهم جيوش القاذورات إلى غير ذلك مما يشاء له خياله الآفن وفكره السقيم .

والحق أن ذلك تجنٍّ صارخ على التصوف ومبادئه وظلم بيِّن للصوفية .

فلقد نظرنا بعين الإنصاف إلى أصل الفكرة وجوهر المبدأ وتأملنا طويلا فيما يهدف اليه الصوفية من تربية الروح وتهذيب القلب وتقويم النفس حتى يشب الفرد مثلا صالحا وأنموذجا عاليا فى طهر الأخلاق وسلامة التربية ،وإن مجتمعاً ينشأ أفراده على تلك المعانى لهو أقرب إلى عالم الملائكة منه إلى عالم الحيوان .

فهل يليق بالمنصف عندئذ أن يعيب على الصوفية فكرتهم أو ينال من أساليبهم ؟ اللهم إلا إذا أراد مجتمعا يعيش بالآلة لا بالروح ، فى ظلام المادة وطغيانها ، لا فى نور الروحانية وصفائها ، وهل التصوف إلا روح وريحان ونور وإيمان يفيض على من تذوقه النعيم والرضا ، ويشرق على من تأمله بالهدى والسكينة ؟ ؟

وهل الصوفية إلا نماذج عليا من البشر ! أو صور حية كاملة من الملائكة رأوا فى عبادة الله متعاً روحية تتضاءل حيالها متع الحياة ولذائذها ؟؟ فأحالوا الوجود إلى محاريب للعبادة ومنابر تهتف بالرحمة والمحبة حتى أشرقت الأرض بنورهم وتعطرت الحياة بصفاتهم وتأثر الوجود بروحانيتهم .

دع عنك هؤلاء المتصوفين الجهلاء الذين ينتسبون إلى التصوف زوراً وبهتانا ، بل كانوا حربا عواناً على التصوف ، حيث مهدوا بسوء صنيعهم للحملات الهوجاء التى يشنها الخصوم على الأبرياء ، ولكن انظر إلى الصفوة المختارة من رجال أهل المعرفة الذين سجل لهم التاريخ مواقفهم الخالدة فى حياتهم التعبدية ، والذين فهموا غاية الحياة وسرها فنادوا - مخلصين - بأن كل شىء لله ومن الله ، وأن الحياة طابعها الرحمة ودستورها المحبة وهدفها العبادة .

وما أحوجنا فى هذه الأيام التى تخبط فيها الحياة فى دياجير المادية الطاغية فى بحر لجى من الشهوات ، يغشاه موج من المجون والإباحية ، من فوقه موج من الأحقاد والأنانية ، من فوقه سحاب متراكم من الرذائل والأرجاس ، ظلمات بعضها فوق بعض ، أنكرت الإيمان فلم يصدر عنها إلا شر وعدوان .

ظلمات كثيفة من الفقر الروحى الذى ذهب بعواطف الخير والمحبة ، ماأحوجنا - والحالة هذه - إلى حياة أخرى هانئة ، نجد فيها برد الراحة والطمأنينة ، ونتفيأ فيها ظلال الخير والبركة ، وننعم فيها بنفحات المحبة والصفاء .

وإنى لأومن إيماناً عميقاً لايرتقى اليه شك أن للتصوف والصوفية ميداناً فسيحا

وجهاداً مشكورا فى رفع القيم الروحية والمعنوية فى النفوس ، ورد تيار المادية وإعادة الهدوء والصفاء إلى الحياة ، والإشراق والسلام إلى الوجود .

وعلى هذا الأساس نبحث فى كتابى هذا عن بعض الأحوال والمقامات التى آنستها من التصوف ورجاله والتى قد يكون لها فى حياتنا العامة والخاصة أثر عميق .

وإنى وإن كنت أعتقد أن هذا المجهود فوق طاقتى ، لكنى أشعر بما كان لهم من أثر بالغ فى حياتى .

لذلك أردت أن أجلو للقارىء الكريم فكرتهم مستعينا فى شرح ذلك ببعض فعالهم وأقوالهم ، اعترافا منى بفضلهم ، وسموا بدعوتهم أن تتطاول عليها الأفكار السقيمة بالقدح والتجريح .

وأستلهم الله التوفيق والسداد وأستعصمه العثرة والزلل فمنه المبتدى وإليه المنتهى وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

المؤلف

حامد محمود على اسماعيل الميرغنى

القاهرة فى ١٤ شعبان المبارك

سنة ١٣٦٩ هجرية


التعريف بالتصوف

التصوف

التصوف رسالة روحية وفكرة دينية وطريقة تهذيبية . عمادها تصفية القلب من أوضار المادة وشوائب الحياة وقوامها صلة الانسان بالخالق العظيم .

ولقد ذهب الأولون فى تحديده كل مذهب ، فن قائل بأنه هو الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى ،ومن قائل بأنه أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام . إلى غير ذلك من رسوم توضح لنا طبيعة التصوف وأهدافه .

اشتقاق كلمة التصوف :-

وقد اتخذ السادة الصوفيه - كلمة التصوف - علما على مذهبهم كرمز للصفاء الذى عطروا الدنيا به ، ورمز لشعارهم الذى يهتفون به وهو الزهد فى الدنيا والإعراض عن زينتها والاتجاه الكلى إلى ما عند الله وهو خير وأبقى . وتأسيا بأهل الصفة رضى الله عنهم وهم الرعيل الأول من رجال التصوف الذين تجردوا من مظاهر الحياة وفاضت قلوبهم بهدى الله وعكفوا على الطاعة والعبادة فى صفة بناها لهم رسول الله ﷺ فى مؤخرة مسجده بالمدينة .

نشأة علم التصوف :-

لم يكن التصوف إلا علما من العلوم الشرعية عنى به سلف هذه الأمة ، وألفوا فيه كتبا ووضعوا له رسوما وقوانين ، ولقد زعم المغرضون أن التصوف مستمد من فلسفات الهند واليونان بحجة أن كلمة - التصوف - مأخوذة من (صوفيا) وهى كلمة يونانية معناها الحكمة ، وهو زعم باطل لايسنده المنطق ولا تدعمه الحجة .

بيد أن علم التصوف وكتبه قد لحقها كثير من الأباطيل شأن غيره من العلوم ، وهل هناك أسمى من كتب التفسير والحديث والتاريخ ؟ ومع ذلك فلم تسلم من الزيف

والدخيل والعليل والسقيم . ولا يدعونا ذلك إلى الحكم بتجريد أى علم من هذه العلوم من صبغته الدينية وطبيعته الإسلامية .

وما أجدر بالباحثين والمفكرين أن يحافظوا على ذلك التراث الإسلامى العظيم الذى تركه لهم أسلافهم من قبل وديعة فى أيديهم وأمانة فى أعناقهم فيقدروه حق قدره ويخلصوه من كل شائبة تعكر صفوه أو تهبط به إلى المكان الذى لايليق به .

فهل فكر المنصفون من أولى الرأى والفكر والقلم أن يشحذوا هممهم فينفوا عن التفسير إسرائيلياته ،وعن التاريخ ترهاته ، وعن التصوف زيفه ودخيله ؟؟حتى يتسنى لناشد الحقيقة أن يجدها ويميزها عما سواها ؟؟

ولقد أحسن ابن خلدون فى مقدمته حيث عرض لتاريخ التصوف بروح الباحث الحر فقال : (. . . وهذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة وأصله أن طريق هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى ومابعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية) .

من المؤسس الأول ؟ :-

أما أول من أسس ذلك المذهب الصوفى فهو وحى السماء نزل به فى جملة ما نزل به على رسول الله ﷺ من معالم الحنيفية السمحة ، ومقامات الدين العالية وهى : الإسلام والإيمان والإحسان ، فالإسلام طاعة وعباده ، والإيمان نور ومعرفة ، والإحسان مقام شهود بالقلب بأنه فى نطاق العظمة الإلهية — ترى الله ويراك الله —

ومن يحس بهذا إحساساً كاملا صادقاً ، فأنى له أن ينحرف أو يهوى ؟؟ إنه فى المقام العلى حيث لا إثم ولا هوى .

أخرج البزار والبيهقى فى الشعب عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لقى رجلا يقال له حارثة فقال : كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ، فقال : إن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال ، عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أسمع عواء أهل النار ، فقال : عرفت فالزم .

وهذا خلاصة مايهدف اليه التصوف وغاية مايناى به الصوفية ، لذلك لا بدع ولا غرابة إذا رجعنا التصوف فى ثقة ويقين إلى ينبوعه الأول وهو الوحى الإلهى الذى غمر الرسول ﷺ بالفيض الروحى والإمدادات القلبية التى روت بمائها العذب — فيما بعد — أرواح أهل التصوف :

◆◆◆

فلسفة التصوف

هم يستغفرون « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » .

يقرأ الصوفى هذه الآيات وغيرها فيذرف الدمع أسفا على ما قصر فى حياته .

أخذ العهد :ـ

بعد التوبة الصادقة يلتحق الطالب بمرشد أو شيخ يتعهده بالتوجيه ويرشده إلى الطريق الحق ويضىء له ما أظلم من جوانب نفسه حتى يعبد الله على بصيرة وهدى .

أما إذا انفرد بنفسه فلا يأمن أن يستحوذ عليه الشيطان فينسيه ذكر الله وما مثله حينذاك إلا كمثل حديقة لم يعن بها فلم تثمر ثمراً صالحا .

وأول ما يتلقاه الطالب عن شيخه هو العهد والميثاق ، عهد على الايمان وميثاق على الطاعة ، وتعاون على البر والتقوى ، وقد فعل النبى ﷺ ذلك مع أصحابه كما ورد ذلك فى القرآن الكريم « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم »

وجاء فى صحيح البخارى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئا ولاتسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولاتأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولاتعصوا فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك » .

والسادة الصوفية هم أحرص الناس على حياة تعبدية خالصة تقوم أسسها على السمع والطاعة والخضوع والإذعان لنصيحة ناصح أو توجيه مرشد . فنشأت بينهم تلك المدارس الروحية التى قامت على أعظم أساليب التربية والتقويم وأقوى صلات الروح بين الشيخ والمريد .

فكانت تلك المعاهدات والبيعات لها من الأثر فى التزكية والإصلاح أقوى شأن وأوفر نصيب .

طريق الوصول الى الله

الفرار إلى الله باب النجاة ومركب الأمان ، لذلك اتجه الصوفية بقلوبهم وجوارحهم نحو ربهم لأن هواتف الحقيقة تهتف من وراء حجب الغيب ، « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ، « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ٥ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » ، « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » .

وقد رسموا لأنفسهم طريقاً يسلكونه بمقامات متعددة حتى يصلوا إلى المعرفة ، وإلى الحقيقة ، وأول هذه المقامات :

١ - التوبة : - وهي الشعور بالخطيئة والعزم الأكيد على الاقلاع عنها ، وعدم التفكير فيها ، إذ الشغل الشاغل هو الله عز وجل ، والصوفي لا ينظر إلى صغر الذنب بل ينظر إلى عظمة من عُصي اقتداء بأصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم . فلقد كان فيهم من يقول : « إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر ، كنا نعدها في زمن النبي ﷺ من الموبقات » ، ولا يقف الصوفي عند التوبة من المعصية ، لأنها في رأيه توبة العوام ، ، بل يتوب من كل شيء سوى الله تعالى ، وإلى هذا أشار ذو النون المصري بقوله : « شتان بين تائب وتائب ، فتائب يتوب من الذنوب والسيئات ، وتائب يتوب من الزلل والغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات » !

ويستتبع التوبة الاستكثار من الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار ، الذي يشعر الصوفي بالعبودية الحقة والتقصير في حق مولاه ، فهو اعتراف منه بالعبودية وإقرار بالربوبية ، ثم هو يقرأ في كتاب الله قوله تعالى : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ٥ يرسل السماء عليكم مدرارا ٥ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » ، وقوله تعالى : « إن المتقين في جنات وعيون ٥ آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ٥ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ٥ وبالأسحار

نشأة الطرق الصوفية : ـ

ومن هنا نشأت الطرق الصوفية التى يخضع فيها المريدون لنظم خاصة بكل طريقة وكان قوام هذه الطرق منذ نشـأتها طائفة من المريدين يلتفون حول شيخ ينير لهم سبيل الهداية ويبصرهم على الوجه الذى يحقق لهم كمال العلم وجمال العمل .

ومن هذه الطرق (١) النقشبندية نسبة إلى سيدى محمد بهاء النقشبند (٢) القادرية نسبة إلى سيدى عبد القادر الجيلانى (٣) الشاذلية نسبة إلى سيدى أبى الحسن الشاذلى (٤) الجنيدية نسبة إلى سيدى أبى القاسم الجنيد (٥) الميرغنية نسبة إلى سيدى محمد عثمان الميرغنى رضى الله عنهم أجمعين .

وقد تشعبت من تلك الطرق فروع كثيرة مازالت تظهر بين حين وآخر وهى تهدف إلى الوصول إلى الله تعالى .

٢- الورع : ـ

وهو مقام صفاء القلب وإشراق البصيرة ، بالانصراف عن اللذات الشهوانية إلى العواطف الدينية .

ومن الصوفية من يتورع عن الشبهات حتى لايوشك أن يتردى فى حمأة الشهوات ومنهم من يتورع عما يهجس فى قلبه من الخواطر ، وما يحيك فى صدره من الوساوس ، وهو ورع أرباب القلوب ، وهناك ورع العارفين والواجدين وهم الذين يرون أن كل مايشغلك عن الله فهو مشئوم عليك .

ورضوان الله على الصوفية الذين أعادوا لنا بهذا التسـامى العجيب فى ورعهم صورة من حياة الصديق أبى بكر رضى الله عنه ، فقد روى أنه شرب لبناً فيه شبهة أتاه به خادمه ولم يعلم بذلك إلا بعد أن تجرع الإناء حتى الثمالة ، فما وسعه حينئذ إلا أن وضع إصبعيه فى حلقه وأخذ يتقايأ اللبن ، ولم يكتف بذلك بل اعتذر إلى ربه بما خالط الأمعاء والشرايين مما لم يكن فى وسعه إخراجه .

٣ ـ الخوف : ـ

ولا غرو ، فبعث ذلك الورع الذى راضوا أنفسهم عليه هو خوفهم من الله تعالى ، ذلك الخوف الذى يتمثل فى تشبيج من يقدر خطورة العواقب فيقف عند الواجب ولا يعرض نفسه لزيغ ولا لإثم ، بل ولا يقف فى مواطن توشك أن توقعه فى الشر والفساد .

ثم يترقى الصوفى فى الخوف ، فيتحلى بأشرف ما يتحلى به المقربون ، وعندئذ تنتقل مظاهر الخوف من عالم الجسم إلى عالم الروح ، فتكون للعارف أشجان لا يدركها إلا أهل الصفاء .

وفى هذا المقام يصف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه السيدة رابعة العدوية بأنها كانت كثيرة البكاء والحزن وكانت إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زمانا وكان موضع سجودها كهيئة المستنقع من دموعها ، وكأن النار ماخلقت إلا لأجلها .

وسر ذلك الخوف إنمـا هو الاعتقاد بأن كل بلاء دون النار يسير ، ويرى الصوفية أن المحب لا يسق كأس المحبة إلا بعد أن ينضج الخوف قلبه ، ومن لم يكن له مثل تقواه ؟؟ لم يدر ماالذى أبكاه ، ومن لم يشاهد جمال يوسف لم يدر ما الذى آلم يعقوب .

الخلوة : ـ

ذكرنا من قبل أن ورع العارفين ، هو الانصراف عن كل ما يشغل عن الله عز وجل ، لذلك كان طبيعيا أن يهيؤا لأنفسهم الجو الملائم بعيدين عن صخب الحياة وأوضارها حرصا منهم على حياة طاهرة عابدة ، وقد تمت لهم تلك الرياضة الروحية فيما يسمونه (بالخلوة) عن شواغل الخلق وشئون الدنيا .

وفى هذه الخلوة يرسل الصوفى تأملاته الطويلة وسبحاته المفكرة ، فى الكون ، وما بدا عليه من آيات الله ، ودلائل عظمته ، ومظاهر سلطانه ، ويظل على تلك الحـال

مستغرقا فى محبة الله وجلاله لايدور بخلده أى طائف يشغله عن ربه ، حتى أنه لينسى نفسه فى حضرة القدس الأعلى .

وإن هذه الخلوة التى يتخذها الصوفية لتزكية نفوسهم ، لهى الشعاعة الأولى فى نور التصوف والبذرة الأم لتلك الحياة الروحية القائمة على إلهام القلب وتأملات الروح

وإذا أمعنا النظر فى تلك الحياة الروحية وحللناها إلى عناصرها التى تألفت منها ومعانيها التى انطوت عليها لوجدنا صورتها الأولى فى حياة الرسول ﷺ حينما كان يخلو إلى نفسه يتصفحها ، وإلى الكون يتأمله ، وإلى مبدع الكون يستطلعه ، فى ذلك الغار الهادىء الوديع البعيد عن ضجيج الحياة وجلبتها ، وظل على تلك الحال حتى صفت نفسه ودق حسه ، وصقلت مرآة قلبه ، وتهيأ له أن يرى الرؤيا الصادقة التى أشرقت بعدها الحقيقة الكبرى فى أعماقه وهبط عقيبها الوحى .

٤ـ الزهد : ـ

وهو أعظم مقام عرف به الصوفية حيث لم يقيموا للدنيا وزناً ، ولم يرفعوا بها رأسا ، والمراد بالزهد عندهم انصراف الهمة إلى الله وتخلى القلب عن الدنيا ، وليس معناه أن يتخلى الصوفى عن الدنيا بالكلية ، ويقطع صلته بها ، ويقعد صفرا منها ، بل الزهد بالمعنى الصحيح أن يخرج الدنيا من قلبه ، فلا يلتفت اليها ، ولا يدعها تساكن قلبه وإن كانت فى يده ، ولذلك قال بعض العارفين « ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك » .

وكأنه يشير بذلك إلى حال الرسول ﷺ حين جاءت له الدنيا وألقيت اليه مقاليد الغنى والثراء ، فلم يزده ذلك إلا زهدا فى الدنيا ، كذلك حال الخلفاء الراشدين ومن أتى بعدهم ، الذين ضرب بهم المثل فى الزهد مع أن خزائن الأموال كانت تحت أيديهم يدبرون بها شؤون الرعية ، وينفقون منها بسخاء فى مصالح المسلمين ، ويسدون بها حاجة المعوزين .

ولقد قال سهل بن عبد الله : وربما يملك العبد الدنيا ويكون أزهد الخلق فى زمانه ، مثل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الذى كان يميز بين الزيت الذى يسرج لنفسه ، والزيت الذى يسرج للعامة ، والذى يصحح الزهد عند الصوفية ثلاثة أشياء أحدها علمهم أن الدنيا ظل زائل وخيال زائر ، كما ورد فى الأثر الذى روى فيه أن رسول الله ﷺ قال لأبى هريرة رضى الله عنه يوما : يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها ؟ ؟ قال بلى يارسول الله ، فأخذ بيده وأتى به وادياً من أودية المدينة ، فاذا مزبلة فيها رؤوس أناس وعذرات وخرق وعظام ، ثم قال : يا أبا هريرة ، هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم ، وتأمل كأملكم ، ثم هى اليوم عظام بلا جلد ، ثم هى صائرة رمادا وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم ، اكتسبوها من حيث اكتسبوها ، ثم قذفوها من بطونهم ، فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم ، فأصبحت والرياح تصفقها ، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك »

وثانيها علمهم أن وراءها داراً أعظم منها قدرا وأجل خطرا ، وهى دار البقاء « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى »

وثالثها علمهم أن زهدهم فيها لا يمنعهم شيئا كتب لهم منها ، وأن حرصهم عليها لا يجلب لهم مالم يقض لهم منها فما أصابهم لم يكن ليخطئهم ، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم وكان شعارهم دائماً قول بعضهم :

لا تركنن إلى الثياب الفاخرة واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا ذكرت زخارف الدنيا فقل لبيك إن العيش عيش الآخرة

٥ ـ الصبر : ـ

وهو نصف الإيمان ، وسر سعادة الانسان ، ومصدر العافية فى البلاء ، وعدة المؤمن حين تثور العواصف والأنواء ، ومناره فى حلك البأساء .

والصوفى يتخذ من الصبر مسلكا للرياضة والمجاهدة ، ومقاومة ماعساه تسول

له به نفسه التى هى عنصر الشر فيه ، والحاجز بينه وبين الاتصال بربه ، ولا عجب ، فأعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك كما قال رسول الله ﷺ :

وللصوفية فى الصبر كلام عجيب ، ومنطق طريف ، فقد سئل الشبلى رحمه الله عن الصبر فتمثل بقوله :

عبرات خططن فى الخد أسطراً　　قد قراها من ليس يحسن يقرا
إن صوت المحب من ألم الشو　　ق وخوف الفراق يورث ضرا
صابر الصبر فاستغاث به الص　　بر فصاح المحب بالصبر صبرا

ودخل ذو النون المصرى على مريض يعوده ، فبينما كان يكلمه أنّ أنة ، فقال له ذو النون : ليس بصادق فى حبه من لم يصبر على ضربه ، فقال المريض : بل ليس بصادق فى حبه من لم يتلذذ بضربه ، وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لما مات ولده الصالح : « إن الله أحب قبضه ، وإنى أعوذ بالله أن تكون لى محبة فى شىء من الأمور يخالف محبة الله » .

لله در الصوفية ، فقد تعرضوا لرضوان ربهم الأكبر فى ظلال الصبر ، وكانوا جديرين بأن يوفيهم ربهم أجرهم بغير حساب ، ولنعم أجر الصابرين .

٦ - الرضا : -

وهو أسمى مقاما وأشرف غاية من الصبر إذ هو السلام الروحى الذى يصل بالعارف إلى حب كل شىء فى الوجود، حتى أقدار الحياة ولأوائها ، حيث يتصورها خيرا ورحمة ويتأملها بعين الرضا فضلا وبركة .

قال عامر بن قيس « أحببت الله حبا هون على كل مصيبة ورضانى بكل بلية فلا أبالى مع حبى إياه علام أصبحت ؟ ولا علام أمسيت ؟ » .

وكان بلال رضى الله عنه يعالج سكرات الموت باسما وهو يقول وافرحتاه : غدا ألقى الأحبة : محمداً وصحبه »

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه يعذب بالنار وهو لا يشعر إلا بأنه فى روضة من رياض الجنة » .

وقد روي أن عروة بن الزبير رضى الله عنهما قطعت رجله ومات أعز أولاده فى ليلة واحدة ، فدخل عليه أصحابه فعزوه فقال « اللهم لك الحمد كان أولادى سبعة فأخذت واحدا وأبقيت ستة . وكانت لى أطراف أربعة فأخذت واحدا وأبقيت ثلاثة فلئن كنت قد أخذت فلقد أعطيت ولئن كنت قد ابتليت فلقد عافيت » .

ولقد كانت نعمة الرضا من أهم العوامل فى تلك السكينة التى شملت قلوب العارفين ومن أقوى الأسباب فى محق النوازع التى يوجدها التفكير فى حظوظ الحياة مما يجلب لصاحبه القلق والحيرة والاضطراب .

٧- المحاسبة : —

وهى تهيئة الوازع الدينى فى النفس ، وتربيتها على حساسية اللوم الباطنى الذى يجردها من كل ما يقف أمامها عقبة فى طريق الصفاء والمحبة . والايثار والإخلاص .

وللصوفية فى هذا المقام قدم راسخة ، وجهاد ومشكور ، حتى إنهم خرجوا من الدنيا ولم يتبلغوا منها إلا باليسير من الزاد ، والتافه من الطعام والشراب .

وما أشبه حال الصوفيه فى ذلك بما كان يأخذ به النبي ﷺ أصحابه ويتجه بهم وجهات روحية خالصة ، نحو غرس ذلك اللوم الباطنى فى نفوسهم .

فلقد روى أن رسول الله ﷺ خرج يوما من بيته يطوى بطنه على الجوع فالتقى بصاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فعلم منهما أن أمرهما كأمره وأنهما لا يجدان قوت يومهما . والتقى بهم رجل من الأنصار لم تخدعه بشاشتهم ، فعلم أمرهم فاستضافهم ، فلما وصلوا إلى منزله وجدوا تمرا وماء باردا ، وظلا وارفا ، فلما تبلغوا بتمرات ، وشربوا من الماء . قال صلوات الله وسلامه عليه « لتسئلن يومئذ عن النعيم » .

وإنه ليكاد يأخذك العجب من أمر رسول الله ﷺ الذى اعتبر هذا الزاد

التافه القليل هو النعيم الأكبر الذى يسألهم عنه ربهم ،يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

أليس فى هذه اللفتة الكريمة من الرسول ﷺ نفحة صوفية ترمى إلى طبع النفس بطابع الوازع القوى، والاحساس المرهف ،والشعور الدقيق بالتبعة الكبرى والمسئولية الضخمة فى كل تصرف تهدف إليه النفس بين حين وآخر ؟

٨- التوكل :-

يعتقد الصوفية رضوان الله عليهم أنه لابد للعبد من غاية مطلوبة ،ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية ،فأشرف غاياته التى لا غاية له أجل منها عبادة ربه والانابة إليه «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وأعظم وسائله التى لا وسيلة له غيرها التوكل على الله ، والاستعانة به والتفويض إليه « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » .

وقوام التوكل عندهم علم القلب وعمله أما علمه فيتمثل فى اليقين بكفاية وكيله وكمال قيامه بما وكله إليه وأن غيره مهما بلغ ما بلغ لا يقوم مقامه فى ذلك . وأما عمله فيتجلى فى ذلك الاطمئنان إلى الله وتسليم أمره ورضاه بتصرفه .

وليس التوكل ترك الأسباب والتخلى عنها بل معناه انحصار الأمل فى الله والاتجاه إلى تدبيره وحكمته ،وعدم تعلق القلب بالاسباب لأنها وحدها لاتغنى من الله شيئا. وإن كان لابد من التوصل بها إلى الهدف والغاية ، نزولا على مقتضى الحكمة الإلهية فى ربط الأسباب بالمسببات ،والنتائج بالمقدمات .

ورحم الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه. فلقد مر على جماعة قعود فقال لهم من أنتم؟ قالوا نحن المتوكلون قال بل أنتم المتواكلون إنما المتوكل على ربه رجل ألقى حبة فى بطن الأرض وتوكل على ربه . وفى منطق الصوفية ما يشير إلى ذلك المعنى فقد قال أبو سليمان الدارانى رضى الله عنه « ليست العبادة عندنا أن تصف قدميك

للصلاة وغيرك يقوت لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد » وقال بعض العارفين : —

توكل على الرحمن فى الأمر كله ولاترغبن فى العجز يوما عن الطلب
ألم تر أن الله قال لمريم وهزى اليك الجذع يسقط الرطب
ولو شاء أدنى الجذع من غير هزه ولكن كل شىء له سبب

٩ — الذكر : —

وهو شعار المحبة وقرة عين العارف بربه ، فبه يرطب لسانه ، ويطمئن قلبه ، ويشرح صدره .

يذكر الصوفى ربه فى كل لحة ونفس ، فيجد فى ذلك برداً وسلاما ، ينسيانه نفسه ، ويوصلانه إلى حضرة ربه .

يذكر الصوفى ربه ، فيسير بخطى واسعة نحو مصدر النور القدسى الأسنى ، وما يتم بعد أن يتسنم الذروة ، حتى يبهره ذلك النور ، فيعود وهو كليل الطرف مبهوت من الجلال والاشراق :

يذكر الصوفى ربه ، لأنه محب لله ، والمحب لايجد مع حب الله للدنيا لذة ، ولا يغفل عن ذكر محبوبه طرفة عين ، فهو إن نطق فانما ينطق بالذكر ! وإن سكت فانما يشتغل بالفكر او لسان حاله دائما يقول :

فان نطقت فلم ألفظ بغيركم وإن سكت فأنتم عند إضمارى

وإن هيام الصوفية بالذكر ، حولهم إلى أقباس روحية وذوقية ، وجعل حياتهم أوتارا دقاقا تصدح بأعذب الألحان فى عالم الأرواح والأذواق .

والصوفية رضوان الله عليهم يتمثلون الذكر فى صور جذابة تفصح عنها الحكاية الآتية :

قال أبو سعيد بن أبى الخير الصوفى : أخذنى شيخى من يدى وأجلسنى فى إيوان

و«ذ يده فأخرج كتابا وأخذ يقرأ ، فتطلعت إلى معرفة هذا الكتاب ،فلمح الشيخ هذه الحركة ،فقال يا أبا سعيد :إن مائة وأربعةوعشرين ألف نبي بعثوا ليعلموا الناس كلمة واحدة وهي « الله » فمن سمعها بأذنه فقط لم تلبث أن تخرج من الأذن الأخرى أما من سمعها بروحه ،وطبعها فى نفسه وتذوقها حتى نفذت إلى أعماق قلبه وفهم معناها الروحي وألهم حبها فقد انكشف له كل شيء » .

وقال العارف الشعرانى فى المنن « ومما من الله به علىّ مواظبتى أول دخولى لطريق القوم على ذكر الله بلفظ الجلالة أربعا وعشرين ألف مرة فى كل يوم وليلة على عدد الأنفاس الواقعة فى الليل والنهار ليكون حكمى إن شاء الله حكم من لم يغفل عن الله نفسا واحدا » .

أما بعد : فإن تلك المقامات والأحوال التى يتوسل بها الصوفية إلى الوصول إلى الله،والأنس بقربه كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها ،إذ هى تدور حول معنى واحد هو أشرف وسيلة إلى أنبل مقصد ، وقد قال بعض العارفين مؤكداً هذا المعنى : ـ

الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالـكل غير الله إن حققته عدم على التفصيل والإجمال

وفى الحق : إن تلك المعانى الروحية العجيبة التى امتاز بها رجال التصوف الكرام لهى روح من عند الله أمدّهم بها ، وتوفيق إلهى صاحبهم فى طريقهم ، حتى فازوا بكرم المثوبة .وشرف العقبى ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » .

الحب الالهى

وهو غريزة إلهية فى النفس، تنزع بها إلى تفهم حقيقتها، والشوق إلى الاتصال بخالقها، ويزداد الحب كلما يزداد الايمان، وعلى مقدار الحب تكون السعادة، ويكون النعيم.

وحب الله تعالى يسمو بالذوق الإنسانى، إذ يحول صاحبه إلى لطيفة راضية مطمئنة لايصدر عنها شر ولا عدوان.

وللصوفية فى هذا التسامى منطق طريف، فهم يرون أتباع الشرع طلاب جنات ونعيم، أمامهم، فيرون أنفسهم عشاقا لرب الجنة وشتان بين من يصافى المالك، ومن يتعلق بالمملوك.

وحينما نقرأ كلامهم فى ذلك نعرف أن جنتهم الكبرى التى يرجونها، هى رضا الله ولقياه. وأن النار العظمى التى يرهبونها هى البعد عن سمره، وجميل أنسه، وإشراقة وجهه، ومحراب نجواه.

لقد قالت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها «إلهى إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقنى بنار جهنم، وإذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فاحرمنيها، وأما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك، فلا تحرمنى يا إلهى من جمالك الأزلى».

وفى هذا الكلام شعور صادق، وعاطفة روحية، قوامها التضحية وإنكار الذات لاطمعا فى ثواب، ولا رهبة من عقاب.

ولقد كان بعض العارفين يطوف حول الكعبة، فتجمعت القرامطة، على الناس فقتلوهم فى الطواف حتى وصلوا اليه، فلم يقطع الطواف حتى سقط من ضرب السيوف صريعا وأنشد:

والله لو حلف العشاق أنهم ... موتى من الحب ما ماتوا وما حنثوا

ترى المحبين صرعى فى ديارهم ... كفتية الكهف لايدرون كم لبثوا

والحب الإلهي هو الذى جعل الصوفية لايرون غير المعانى ولا يعبأون بالمظاهر والأشكال ، ولقد كان من أهم الوسائل عندهم للظفر بالجنة الروحية ، وما تجلى فيها من أقباس الحنان ، أنظر إلى ابن العربى رضى الله عنه يقول :

لقد كنت فيما مضى أنكر صاحبى　　إذا لم يأت دين إلى محبته دان
قد صار قلبى قابلا كل صورة　　فرعى لغزلان ودير لرهبـان
وبيت نيران ومعبد طائف　　وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت　　ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وهكذا يتجلى فى شعر ابن العربى شعور المحب ، وعواطف الروحى ، وشجاعة المستشهد ، وإيمان الناسك ، وسلوى العاشق ، حتى أنه ليصور لنا هيامه بالحب إلى الحد الذى جعله يعتقد أنه لادين خير من دين الحب ، والشوق إلى الله وأن الاسلام دين المحبة . لأن محمدا ﷺ كان حبيب الله .

ولقد اخترع الصوفية أسلوبا مجازيا فى شعرهم ، إلى حد يتعذر على دارسه فى أكثر الحالات أن يميز بينه وبين الغزل ، ويسأل نفسه هل قيل هذا الشعر فى معشوقة من البشر ، أو منشودة من السماوات ؟ ؟

ولقد أوضح لنا ابن العربى رضى الله عنه تلك الحقيقة فقال « ليس فى مستطاع أهل المعرفة إيصال شعورهم إلى غيرهم ، وغاية مافى هذا المستطاع هو الرمز عن تلك الظواهر لأولئك الذين أخذوا فى ممارستها ، لذلك عمد بعضهم إلى الخمر ، وآخرون إلى الحب ، وهكذا ، الأمر الذى حدا بالكثير من قصار النظر إلى قذف الصوفية بالشهوات الدنيوية ، والملذات الجسمية .

والحب الإلهى يصل بالانسـان إلى حب كل شىء فى الوجود ، لأنه من صنع الحبيب وأنى للمحب الصادق أن يكره ماخلق الحبيب الأعظم عز وجل .

ومن أخبار الصوفية رضى الله عنهم ، حبهم للناس الذى تجلى فى الكرم والإيثار ، وعطفهم على الحيوانات والعجماوات والحشرات ، الذى تمثل فى البر والرحمة ، ولقد

قيل إن أبا يزيد البسطامى رضى الله عنه اشترى وهو فى همذان طعاما ووضع بقاياه فى جيبه ، وما إن وصل إلى بلده حتى وجد جماعة من النمل فى جيبه كانت قد علقت بالطعام فما وسعه إلى أن عاد ينهب مئات الأميال إلى همذان لكى يرد تلك المخلوقات الصغيرة إلى أوطانها .

بمثل هذا الذوق الانسانى ، وصل الصوفية إلى الاطمئنان والرضا ، وفى ظلال الحب الإلهى رأوا متعاً روحية دونها متع الحياة وشهواتها ، وحسبهم أنهم يسمرون مع الله ، وينعمون بقربه ، ويحسون بفضله وجوده ، « رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » .

****

بين الحقيقة والشريعة

للحياة الروحية أسرار عظيمة يتذوقها المحب ، وينعم بها العابد ، فهى تصل بصاحبها إلى عالم المناجاة والإلهام . لذلك قال بعض العارفين « إن قلبى ليسكن اليوم عالما لا يعرف غيرى عنه شيئا ولو سئلت ماهى؟ لأعجزنى أن أجيب »

أجل : إن ذلك العالم الذى سما اليه ذلك العارف لأعظم من أن يصوره القلم ، أو يوضحه الكلام ، إنه عالم الأنوار والتجليات التى يصاحبها فيض من الاشراق والهبات ، كما يقول الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه « ليس العلم بكثرة التلقين والرواية . إنما هو نور يقذفه الله فى قلوب من أطاعوه فأحبهم »

والصوفية رضوان الله عليهم يتخذون من ذلك أساسا للعلم الباطنى ، لأن طاعتهم لله تستوجب محبته ،التى يصادفها الفيض والالهام .

وإذا عرفنا أن العبادة وصفاء النفس سبيلان شرعيان لكشف الحقائق العلمية ، وإدراك الأمور الغيبية بواسطة الإلهام الروحى ، فهمنا أن الصوفية بخواطرهم القلبية لايعطلون حداً من حدود الله ، ولا يخالفون شرعه .

كيف !! وقد أتت لهم تلك الفيوضات بعد أن ذابوا شوقا إلى ربهم ، وتقطعت أوصالهم من محبة مولاهم .

ولقد اصطلح الصوفية على أن علوم الشرع الظاهرة هى « الشريعة » وأن ثمرتها الروحية وما يتبعها من فيض ومعارف باطنية هى « الحقيقة » وعلى ذلك ، فبين الشريعة والحقيقة أو الظاهر والباطن ارتباط وثيق ، كلاهما متمم للآخر ، وليس بينهما من الفرق إلا مايكون بين اللفظ والمعنى ، لاغنى لأحدهما عن الآخر ، حتى لقد قالوا : « من تصوف ولم يتشرع فقد تزندق ، ومن تشرع ولم يتصوف فقد تفسق »

وفى القرآن الكريم مثال واضح يقرر على الظاهر والباطن ، ويوضح الحقيقة والشريعة .

«يقول الله تعالى : « . . . فوجدا عبدا من عبادنا – هو الخضر عليه السلام – آتيناه رحمة من عندنا ، وعلمناه من لدنا علما ، قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ، قال إنك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ، قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ، قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا ، فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ، قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا ، قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا ، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا ، قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا ، قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا » .

إلى هنا ترينا الآيات الكريمة مشهدا رائعا يبدو فيه سيدنا موسى كليم الله على صورة التلميذ الغاضب الثائر على فلتات معلمه التى تذهب بلب الحليم وتدعه حيران ، ويمثل فيه الخضر عليه السلام موقف الأستاذ المحنك الخبير .

نعم : يخرق الخضر السفينة ، ويقتل الغلام ، ويقيم الجدار ، بدون أجر لقوم منعوهما كرم الضيافة . يفعل تلك الأعاجيب !! لا لأنها بغى وعدوان ، ولكن لما تدخره فى طى الزمان ، من أسرار هى فى صالح الانسان ، وهنا ينجلى الموقف وينكشف القناع عن حقيقة سافرة ، سر لها قلب موسى وخاطره ، كما اعتقد أن هناك علوما باطنية وفيوضات قلبية أفاء الله بها على عباده المصطفين الأخيار .

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ، وأما الجدار فكان

لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا » .

ونقرأ فى شريعتنا الغراء شبها بينا لما كان بين موسى والخضر عليهما السلام من خلاف . فقد وقع مثله بين الرسول ﷺ وبين أصحابه رضى الله عنهم حول لص سرق فحكم عليه الرسول ﷺ بالقتل بدل قطع اليد لأنه أدرك بقلبه أن مصيره القتل نتيجة لسرقاته المتتابعة ، التى لا تقف عند حد ولا يردعه عنها حد إلا القتل .

روى النسائى عن الحارث بن حاطب أن رسول الله ﷺ أتى بلص فقال اقتلوه ، فقالوا يارسول الله إنما سرق !! فقال اقتلوه ، فقالوا يارسول الله إنما سرق !! قال اقطعوا يده : ثم سرق بعد ذلك فقطعت رجله ، ثم سرق فى عهد أبى بكر حتى قطعت قوائمه كلها ، ثم سرق الخامسة فقال أبو بكر رضى الله عنه كان رسول الله ﷺ أعلم بهذا حين قال اقتلوه : فأمر بقتله .

كما نقرأ فى كتب السنة الصحيحة شواهد كثيرة توضح لنا فى جلائها الشريعة والحقيقة اللتين هما من أصول الصوفية رضى الله عنهم .

وقد قالوا فى تفسير قوله تعالى « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » النعمة الظاهرة مثل الطاعات والباطنة خواطر القلوب وكشفها ، والعلماء العابدون هم ورثة الأنبياء ، وليس ميراث النبوة بالمال أو المتاع ، وإنما ميراثها فى العلم والمعرفة ، والفيض والرضا والاشراق .

الكشف والالهام

وهو نور يحصل للسالكين نتيجة لما يأخذون به أنفسهم : من مجاهدة وخلوة وذكر . فهنالك ينكشف لهم حجاب الحس ، وتنقطع دونهم أسباب المادة وتنعكس أبصارهم فى بصائرهم ، فينظرون بنور من الله وتنمحى أمامهم مقاييس الزمان والمكان فيطلعون على عوالم من أمر الله اطلاعا لا يستطيعه من لا يزال مقيدا بقيود الحس ولا يتسع له إلا تلك القلوب النيرة ، التى زالت عنها ظلمات الحياة وغواشيها ، وانقشعت عنها غيوم الماديات وأوضارها .

ويرجع هذا الكشف إلى أن العبد إذا انصرف عن الحس الظاهر إلى الحس الباطن ظهرت روحه على نفسه المتلبسة ببدنه ، وتتلقى حينئذ المواهب .

والقلوب عند الصوفية : نوعان : فقلب لا يولد ولم يأن له أن يولد بل يظل جنينا فى بطن الشهوات . والغى والجهل والضلالات ، وقلب ولد وخرج إلى فضاء التوحيد وحلق فى سماء المعرفة وتخلص من ظلمات النفس والهوى ، فقرت عينه بالله ، وأنارت جوانبه أشعة اليقين ، وجعلته مرآة شفافة لا مساغ للشيطان إليها ، ولا سلطان له عليها فلا يشعر صاحبه إلا بالله . وكل ما كان يربطه بالوجود من قبل فهو عدم وفناء .

وليس هذا ببعيد فالطاقة الروحية مبعثها القلب النير الصافى وقد ورد فى بعض الأحاديث أن النبى ﷺ قال « لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » وورد أيضا « إحذروا فراسة المؤمن فهو ينظر بنور الله » .

ويؤيد ذلك أيضا ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجه جيشا بقيادة « سارية » وبينما كان يخطب عمر على المنبر إذ رأى بنور من الله مركز جيش سارية وأنه يعوزه أن يحمي ظهره بالجبل ، حتى لا ينقض عليه العدو . فجعل ينادى بصوت

جهورى سمعه من فى المسجد، بل اخترق صوته تخوم الأودية والجبال ، والبيوت والتلال حتى وصل إلى مسامع الجيش « يا سارية الجبل الجبل » وكان إذ ذاك فى بلاد فارس فما إن سمعه سارية حتى احتاط بجيشه وحمى ظهره بالجبل، فكان له النصر والغنيمة . ولما أرسل سارية رسول جيشه إلى أمير المؤمنين يخبره بالنصر والغنيمة سأله أهل المدينة هل سمع الجيش وهو فى بلاد فارس شيئا يوم الواقعة ؟ قال نعم سمعنا « يا سارية الجبل الجبل » وقد كدنا نهلك فنجأنا إليه ففتح الله علينا .

وهكذا تنطلق القلوب النيرة من مقاييس الزمان والمكان ، إلى قدس أسرار الايمان ، وتشرق فيها فيوض الرحمة وأسرار الحكمة، حتى تشف وترق، بعد أن يجلوها الحب ، ويغذيها المعرفة ويطهرها النجوى فتنتقل فى ملكوت السموات والأرض وتحيط بكثير من العوالم ، ولا شك أن تلك الأسرار الروحية لا تدرك بمجرد الكلام فمن لا نصيب له فى شيء منها ، فلا يضره أن يكلها إلى أربابها، وأن يعطى القوس باريها .

فللكشافة أقوام لها خلقوا والمحبة أكباد وأجفان

◆◆◆

الوجـد الصوفى

وهو سر قدسى بين الصوفية وبين ربهم ونفحة تجلّ بالرضا والحب على قلوبهم وصلوا إليها وتعرضوا لها بحبهم لله واستغراقهم فى التأمل فى عظمته والتفكر فى سلطانه . وعندئذ تقشعر جلودهم وترتعد فرائصهم وتستيقظ أرواحهم فى نشوة ربانية لا يعرفها إلا من ذاقها .

وقد عاش الصوفية بهذا الوجد يترجمونه ألحانا من الحب ويبتدعون به ألوانا من العبادة وضروبا من التهجد وأساليب من المناجاة حتى غدت الحياة لديهم محرابا كبيرا للتبتل والطاعة وميدانا فسيحا للذكر والالهام .

قال أبو سعيد بن الأعرابى رضى الله عنه : ـ الوجد رفع الحجاب ومشاهدة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ومحادثة السر وإيناس المفقود وهو فناؤك من حيث أنت ، والذى يحجب عن الوجد رؤية آثار النفس والتعلق بالعلائق والأسباب لأن النفس محجوبة بأسبابها ، فإذا انقطعت الأسباب وخلص الذكر وصحا القلب ورق وصفا ونجعت الموعظة فيه وحل من المناجاة فى محل قريب وخوطب وسمع الخطاب بأذن واعية وقلب شاهد وسر ظاهر فشاهد ما كان منه خاليا فذلك هو الوجد لأنه قد وجد ما كان معدوما عنده ،

وقال «سرى السقطى» الوجد هو فقدان الشعور حتى أنه لو ضرب من هو فى هذه الحال بسيف على وجهه لما شعر به ، وكأنه يشير إلى ما قد حصل لأبى حمزة الصوفى رضى الله عنه حيث واقاه الوجد فى بغداد فما أفاق إلا وهو فى وسط الصحراء .

والوجد عند الصوفية استغراقات ومكاشفات تنشأ من فرط حب لله تعالى وصدق إرادته والشوق إلى لقائه كما يقول الله تعالى « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » وكما يقول « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين

يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، وهذا الوجد يعرف فى إصطلاحهم بالوجد والهاجم ، وقد يكون متكلفا لاستدعاء الأحوال الشريفة ، واكتساب الخواطر والمكاشفات بالحيلة حيث يكون للكسب مدخل فى جلب تلك الأحوال وهذا كما أمر الرسول ﷺ من لم يحضره البكاء فى قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازن فان هذه الأحوال قد تتكلف مباديها ، ثم تتحقق أواخرها ، وغالبا ما ينتهى التطبع إلى الطبع :

وقد عرف الوجد أول ما عرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذى قال محدثا عن وجده ، شيبتنى هود وأخواتها ، وقد أسرع الشيب إلى رسول الله صلى عليه وسلم لكثرة حزنه وخوفه من ربه وكان ذلك الخوف على قدر علمه بعظمة الله وجلال سلطانه .

كما روى أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النساء حتى إذا انتهى إلى قوله تعالى ، فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، قال حسبك وكانت عيناه تذرفان بالدموع وفى رواية أنه صعق .

وهكذا كان حال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فمنهم من صعق ومنهم من بكى ومنهم من غشى عليه ومنهم من مات فى غشيته .

سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يقرأ قوله تعالى ، إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ، فأخذه الوجد بقوة فلم يتمالك أن صاح صيحة خر عقبها مغشيا عليه وحمل إلى بيته فلم يزل مريضا فى بيته شهرا .

وروى أن زرارة بن أبى أوفى ـ وكان من التابعين ـ كان يؤم الناس فقرأ مرة قوله تعالى ، فاذا نقر فى الناقور ، فصعق ومات فى محرابه .

وهذا أبو جرير ـ من التابعين ـ قرأ عليه بعض أصحابه القرآن فشهق شهقة فاضت بعدها روحه إلى بارئها .

وللصوفية رضى الله عنهم أحوال عجيبة فى مواجدهم وهى توضح لنا فى جملتها ما كانوا عليه من خوف وإشفاق، ومحبة وأشواق إلى لقاء ربهم والتمتع بوجهه الكريم.

سمع رجل من أهل التصوف قارئا يقرأ قوله تعالى «يأيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية» فاستعادها من القارىء وقد استغرق فى التفكير والمحاسبة وأخذه الوجد وهو يقول «كم أقول لها ارجعى وليست ترجع» وزعق زعقة خرجت روحه بعدها.

وقال الجنيد «دخلت على سرى السقطى فرأيت بين يديه رجلا قد غشى عليه، فقال لى هذا رجل قد سمع آية من القرآن فغشى عليه، فقلت اقرؤا عليه تلك الآية بعينها، فقرئت عليه فأفاق! فقال: من أين قلت هذا؟ فقلت رأيت يعقوب عليه السلام كان عماه من أجل مخلوق، فبمخلوق أبصر. ولو كان عماه من أجل الحق ما أبصر بمخلوق.

وبعد: - فان تلك الحالة الروحية التى يستغرق فيها الصوفية وتعرض لهم بشدة وقوة فى عباداتهم وتأملاتهم لهى الدليل الواضح، والحجة القاطعة على مبلغ علمهم بربهم وشوقهم إلى لقائه وإشفاقهم من عذابه، فتارة تهتز قلوبهم طربا ونشوة، وطورا تقشعر جلودهم خشية ورهبة، وأحيانا تسبح أرواحهم خفاقة حول العرش، ظامئة إلى الرضا تواقة إلى الأنس والتمتع بالجلال والجمال.

وإن تلك المكاشفات النورانية قد كان لها من الأثر البالغ مانلمسه فى ألحان عمر ابن الفارض وما نتذوقه فى حكم رابعة العدوية، وما نستغربه فى تحرقات الجنيد وما نحار فيه من استغراقات البسطامى وشطحات الصوفية رضى الله عنهم.

وإن الانسان ليكاد يتصور ذلك الوجد الصوفى بما يعرض له فى حياته اليومية من مشاهدات تؤلم الحس وتهيج الشعور، فقد يمر بحادثة مروعة، أو يرى خطبا جسيما أو يقف على مشهد مؤسف، فيقشعر له، جسمه وترتعد له فرائصه، وقد

تغيب روحه عن الحس والشعور ، بل إن الشاعر ليصور لنا تواجده لمجرد ذكر محبوبه فيقول :

وإنى لتعرونى لذكـــراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

فهل بعد ذلك نستكثر على القوم تواجدهم عند ذكرهم لمحبوبهم الاعظم جل وعلا واستغراقهم فى مشاهدة عظمته وسلطانه ، وهم أصحاب الرحاب الفسيحة ، والآفاق الممتدة ، والسبحات الطويلة ، والتفكير العميق فى جلال الله وعظمته ، حتى لم يعد لغيره فى قلوبهم فراغ .

لقد كان سهل التسترى رضى الله عنه يقول : « أربعون سنة أكلم الله ! ! والناس يظنون أنى أكلمهم » .

وهذا الكلام يصور لنا وجده بأبلغ وجه وآكده ، فالناس كلهم فى نظره فناء وعدم ، وليس بعد كلام الله له ومناجاته إياه أى كلام ، وليس يدرك ذلك إلا أهله وذووه .

◆◆◆

شطحات الصوفية

لكل صناعة لغة ، ولكل طائفة اصطلاح ورموز ، لايفهمها إلا أصحابها ، ولا يستبينها إلا أهل الاختصاص فيها .

وتلك حقيقة مسلمة لا جدال فيها ، ولا مكابرة حولها ، فالمنطق السليم يؤكدها وشواهد الواقع تسندها وتعززها .

فترى مثلا للأطباء اصطلاحات ، وللمهندسين رموزاً وأشكالا ، ولأرباب الفن لغات ، ولغيرهم كذلك .

وهكذا الحال عند سادتنا الصوفية رضوان الله عليهم ، لهم لغتهم التي تعارفوا بها ، ورموزهم التي اصطلحوا عليها ، وعباراتهم التي يترجمون بها عن أحوالهم ، ومواجدهم ومقامات سلوكهم .

وقد ترك لنا الصوفية رضوان الله عليهم ثروة طائلة ومادة غزيرة ، من تلك العبارات والأساليب هي تعد بحق عند العارفين كنوزاً علوية ، وعند المحبين آيات من النور والجمال .

ولقد كان مبعثها دائماً كثرة المواجد التي كانت أبرز شيء في حياتهم التعبدية ، فكانت تفيض بقوتها وتهيج بشدة غليانها ، حتى تسيل على ألسنتهم عبارات بعيدة الخيال ، وأساليب غامضة المعنى بحيث لايكاد سامعها يقف عليها ويأخذها على ظاهرها حتى يذهب فكره كل مذهب وقد يهلك مع الهالكين .

وهذه العبارات هي التي تسمى في عرفهم بالشطحات التي تشبه الأسلوب الرمزي الذي يقصر عن تذوقه وإدراك مايتطوى عليه من لم يشارك القوم في طريقهم ، ذلك لأن الدليل لاينفع في فك هذه الرموز وحل مشكلاتها ، لا سيما وأن مايعرض لأصحابها فيها ، إنما هو من قبيل الوجدانيات التي لاتخضع للعقل من ناحية ، والتي يعبر أصحابها عما ينكشف لهم ويتجلى عليهم من الواردات والمكاشفات بألفاظ

مبهمة وعبارات غامضة يشيرون بها إلى غير ماتدل عليه ظواهرها من ناحية أخرى .
سئل أبو يزيد البسطامي رضى الله عنه عن عمره ؟ فقال : أربع سنوات ، قيل وكيف كان ذلك ؟ فأجاب بقوله : « حجبت عن الله سبعين سنة ، ولم أره إلا فى السنوات الأربع الأخيرة وعليه ، فالسبعون الأولى ليست من عمره .

وقد يعجب سامع من ذلك ، ويسائل نفسه وكيف يرى ربه وهو فى هذه الدنيا ولكنه سوف يقتنع إذا تأمل فيما روى أن علىّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ، سئل هل ترى الله ؟ فأجاب : « وكيف نعبد من لانرى ؟ ! »

نعم . . هذه الرؤية رؤية قلبية روحية ، لاينالها إلا من كان أهلا لها ، ولقد قرىء على أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه قوله تعالى : « إن بطش ربك لشديد » فأخذه الوجد الذى فاض على لسانه بتلك العبارة الجريئة « بطشى أشد »

وقد تقوم فى النفس ثورة عاصفه حينما تقف على تلك العبارة ، لأنها تبدوا فى صورة غير مفهومة ، ولكن إذا تلبثنا عندها يسيرا ، لفهمنا مايريده أبو يزيد منها كما قال ابن العربى رضى الله عنه : « إن بطش العبد بطش لاتلابسه الرحمة ولا الحكمة وبطش الحق سبحانه وتعالى فيه رحمة بالمبطوش به ، ومن هنا كان بطش العبد أشد لقسوته » فكأنه يشير بكلامه هذا إلى معنى آخر ، لادلالة لكلامه عليه ، فهو يشير إلى مظهر الرحمة الواسعة التى تحلى بها رب الأرباب وكتبها على نفسه ، حتى فى حالة انتقامه وعذابه ، كما يشير إلى عنصر القسوة فى الانسان الطاغية البعيد عن الرحمة والحكمة.

وهذا شبيه كل الشبه بما روى عن على كرم الله وجهه أنه قال : « لقد خلق الله العالم دون روية » فما أن فرغ من كلامه حتى هبت عليه عاصفة من اعتراضات أصحابه حتى إنهم شكوه إلى رسول الله ﷺ ، فتبسم ﷺ وعلمهم أن الروية والتفكير من صفات العجز التى يتنزه عنها الخالق العظيم ! !

ويؤكد لنا مركز الصوفية فى شطحاتهم ماروى من أن سيدنا عمر بن الخطاب

رضى الله عنه قال لمعاذ بن جبل رضى الله عنه : « كيف أصبحت يامعاذ ؟ فأجاب بقوله : أصبحت أحب الفتنة ، وأكره الحق ، وأصلى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ماليس لله فى السماء ! ! » .

فهم سيدنا عمر أن يبطش به ، فقد حسبه أنه قد خرج أو لحقته تلك الفتن المظلمة التى (يمسى فيها الرجل مؤمنا ويصبح كافرا ، ويصبح مؤمناً ويمسى كافرا) ولكن علياً كرم الله وجهه تداركه بحكمته وسعة علمه وتفكيره ، ففسر له « الفتنة » بالمال والولد كما قال تعالى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » وفسر « الحق » بالموت والسيدة عائشة رضى الله عنها كانت تقول : كلنا يكره الموت ، وفسر « الصلاة بغير وضوء » بالصلاة على رسول الله ﷺ وهى لايشترط لها وضوء ، « وفسر الأخيرة » بأن له زوجة وولدا ، والله سبحانه وتعالى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، فما وسع عمر رضى الله عنه إلا أن اتهم نفسه بالخطأ ، وسجل عليها القصور بعد ماحمل كلام معاذ على مايتفق عليه وماعرف به من الصلاح والتقوى ، حتى قال : « لولا على لهلك عمر » ترى فى هذا الحوار الدقيق بين عمر ومعاذ أن عمر رضى الله عنه كاد يهلك بقتله معاذا ، وليس لذلك من سبب إلا عدم إدراكه من أول وهله لما يرمى اليه معاذ من خيال بعيد ومعنى عال قد لاتدل عليه تلك الألفاظ الغامضة .

وهكذا يهلك كثير من الناس فى عصرنا هذا بالنيل من سـاداتنا الصوفية ، والانكار عليهم فى شطحاتهم ، بل قد يتطاول عليهم كثير ممن لاخلاق لهم إلى حد تكفيرهم ، ولا شك أن ذلك مرجعه قلة التأمل وضيق الفكر وقصور النظر .

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

وقد يكون للمعترض بعض العذر لأنه لم يسلك طريقهم ، ولم ينهض إلى مقامهم ولم يتذوق حالهم حتى يستطيع أن يحكم لهم أو عليهم .

ولكن من أدب الاسلام الرفيع أن لانخوض فى حق خواص هذه الامة ، وحسبنا

أن نسلم لهم أمورهم التى انفردوا بها . حيث جاوزت الأحوال والمقامات ، وكانت فوق الإدراك والتصور .

ولعل مادار بين سيدنا موسى والخضر عليهما السلام من حوار ، يكون صورة واعظة لكل من ينصب نفسه للجدل حول الصوفية وشطحاتهم .

وقد قال عبد القادر الفاسى رضى الله عنه « ... ولا يخفى هذا على من له ممارسة باصطلاحهم ، فيكفينا التسليم والتصديق لما قصرت عنه مداركنا من مذاهبهم ، فاشدد يديك على تسليم مافعلوا ، وظن خيرا ، ولا تعبأ بمن عذل ، إذ التصديق بطريقهم ولاية . والاعتراض جنايه ، فما كل الحكم تظهر ، ولا أسرار الرجال تبدو لكافة الناس »

ورحم الله الإمام الشافعى رضى الله عنه ، فلقد كان مع علمه وسعة أفقه ، ونفاذ بصيرته ، وعلو كعبه فى الفقه والحكمة ، يصحب السادة الصوفية ، ولم يعرف عنه أنه أنكر عليهم بعض أحوالهم أو اعترض على شطحاتهم أو تعرض لتواجدهم ، وسائر أحوالهم ، بل كان رضى الله عنه يقف من كل ذلك موقف المعجب الواثق المطمئن، ثم يترقى فى تواضعه وتنزله إلى حد الاستفادة منهم فى غبطة وسرور وفى تقدير وثناء .

فهل بعد ذلك نظن بأنفسنا خيرا ونأنس فى أنفسنا القدرة والاستطاعة على النقد والتجريح ؟ (إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه)

هذا : ـ وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته كلاما حول شطحات القوم ، هو من الإنصاف بمكان . قال : « . . . وأما الألفاظ الموهمة فاعلم أن الانصاف فى شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس ، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب ، والمجبور معذور ، فمن علم منهم فضله واقتداؤه ، حمل كلامه على القصد الجميل من هذا ، وإن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها ، كما وقع لأبى يزيد ، ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر ، فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يتبين لنا مايحملنا على تأويل كلامه »

وعلى هذا الأساس ينبغى أن نسأل أهل الذكر فيما نجهله من شطحاتهم ، وخير من ذلك التفويض والتسليم لله ، فهو أعلم بحالهم ، وهو الذى غمرهم من فيض أسراره ماجعلهم بذلك ينطقون ، ولله فى خلقه شئون ، ففى ذلك السلامة والعافية والنجاة من من العثرة والزلل .

****

تفسير الصوفية للقرآن

من مزايا القرآن الكريم إحاطته الشاملة بالعلوم والمعارف ، وإشارته الكاملة إلى شتى الأسرار والمعانى .

فهو مدد فياض ، ومادة غزيرة ، يفى بحاجات الباحثين والدارسين ، فأهل اللغة يجدون فيه قواعدهم ، وأهل الأدب يأخذون منه أخيلتهم ، وأهل المنطق يلجأون إليه فى أقيستهم ، وأهل الفن يتعرفون فيه إلى مباحثهم .

كذلك أهل المعرفة وأرباب الأحوال والمقامات يستنبطون من القرآن إشاراتهم العالية ، ومعانيهم الروحية ، وأسرارهم الباطنية ، مصداقا لقول الله الكريم : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » . وفى حديث أخرجه أبو نعيم أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (القرآن ذلول ذو وجوه ، فاحملوه على أحسن وجوهه)

وتفسير السادة الصوفية : ليس فيه تحريف للكلم عن مواضعه ، أو تعطيل لظاهره ، أو تقديم لما أخر الله ، أو تأخير لما قدم الله ، وإنما هو معان استفادوها من القرآن على حسب فهمهم لآياته ، القائم على أساس العبادة والتقوى ، مصداقا لقول الله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » وقد قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه « ليس العلم بكثرة التلقين والرواية ، وإنما هو نور يقذفه الله فى قلوب من أطاعوه فأحبهم »

وقد روى عن على كرم الله وجهه أنه سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء ؟ فقال : « ماعندنا غير مافى هذه الصحيفة أو فهم يؤتاه الرجل فى كتابه »

ومن تفسير السادة الصوفية للقرآن مافسره سيدى عبد العزيز الدباغ رضى الله عنه الذى كان أمياً لايقرأ ولا يكتب ، بيد أن الله تعالى قذف فى قلبه نورا جعله ينطق بالحكمة الإلهية فى تقديم السمع على البصر فى آيات كثيرة من القرآن كقوله تعالى : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون »

يقول رضى الله عنه : « إن السمع أقوى فائدة وأعم نفعا ، لأن أسرار الربوبية

موقوفة عليه ، وبيان ذلك أنا لو فرضنا بنى آدم لاسمع عندهم أصلا ، وجاءهم رسول من عند الله يخبرهم بأنه رسول الله إليهم ، فهذا الصوت لايرى ، ولا سمع لهم حتى يسمعوا مقالته. فيبقى الرسول عندئذ عاطلا ، فإذا قال لهم وآية صدق معجزة كذا وكذا لم يسمعوه فيبقى عاطلا ، فإذا قال لهم وقد أمركم الله عز وجل أن توحدوه ولا تشركوا به شيئا لم يسمعوه ويبقى أيضا عاطلا ، فإذا قال لهم وأمركم أن تؤمنوا بى وبجميع رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر . لم يسمعوه ! ويبقى أيضا عاطلا .
فظهر أنه لو لم يكن سمع ماعرف رسول ولا مرسل ، ولا وقع إيمان بغيب ولا شهادة ، ولا صح اتباع شريعة ، ويلزم أن لايكون ثواب ولا عقاب ، فترتفع الجنة ونعيمها ، والنار وجحيمها ، وبالجملة قد استوجب بنوا آدم بالسمع الدرجة العليا ، ولحق من لحق منهم بالملأ الأعلى ، فظهر أن السمع أقوى فائدة وأعم نفعا .

ولقد سئل أبو بكر الكتانى عن قوله تعالى : « إلا من أتى الله بقلب سليم » ؟ فقال : القلب السليم على ثلاثة أوجه : أحدها هو الذى يلقى الله عز وجل ، وليس فى قلبه مع الله شريك . الثانى : هو الذى يلقى الله تعالى وليس فى قلبه شغل مع الله عز وجل ولا يريد غير الله ، والثالث : هو الذى يلقى الله عز وجل ولا يقوم به غير الله . فنى عن الأشياء بالله ، ثم فنى عن الله بالله . يعنى يذهب عن رؤية طاعة الله عز وجل ورؤية ذكره ، بذكر الله له ومحبته إياه ، لأن الخلق بذكره لهم ذكروه وبمحبته لهم أحبوه وبقديم عنايته بهم أطاعوه .

وسئل شاه الكرمانى رحمه الله عن معنى قوله عزوجل : « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين » ؟ فأجاب بقوله : الذى خلقنى فهو يهدينى اليه لا غيره ، وهو الذى يطعمنى الرضا ، ويسقينى المحبة ، وإذا مرضت بمشاهدة نفسى فهو يشفينى بمشاهدته ، والذى يميتنى عن نفسى ويحيينى به .

وقال الشبلى رضى الله عنه فى قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » أبصار الرءوس عن محارم الله ، وأبصار القلوب .. عما سوى الله .

هذا : وللسادة الصوفية مقدرة عجيبة على استنباط (إشاراتهم) من القرآن مع أن ألفاظه الكريمة لاتدل عليها دلالة ما ، من قريب أو بعيد ، اللهم إلا من قبيل الفهم الذى آتاهم الله إياه ، من ذلك ما أشار اليه أبو يزيد البسطامى رحمه الله تعالى ، حين سئل عن المعرفة ؟ فقال : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) أراد بذلك أن عادة الملوك إذا نزلوا قرية أن يستعبدوا أهلها ويجعلوهم أذلة لهم ، فلا يقدرون أن يعملوا شيئا إلا بأمر الملك ، وكذلك المعرفة إذا دخلت القلب ، لاتترك فيه شيئا إلا أخرجته ، ولا يتحرك فيه شىء إلا أحرقته

ولا يظن القارىء أن تفسير القرآن على ذلك النحو بدع من العلم !! فلقد سبقهم إلى ذلك ابن عباس رضى الله عنهما حيث قال فى تفسير قوله تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح ۝ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ۝ فسبح بحمد ربك واستغفره ۝ إنه كان توابا ۝) تشير السورة الكريمة إلى أن أجل النبى ﷺ قد نمى إلينا.

فهذا التفسير من باب « الإشارة » التى كان مرجعها إلى الفهم الذى خصه الله به استجابة لدعاء النبى ﷺ حيث قال (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) فأدرك رضى الله عنه من مناسبة السورة الشريفة للظروف الخاصة التى أحاطت بالنبى ﷺ إذ ذاك ، ذلك المعنى الذى استنبطه .

ولقد شرح الامام الألوسى فى تفسيره « روح المعانى » مذهب السادة الصوفية فى فى تفسيرهم للقرآن ، قال فى مقدمة تفسيره . (. . . وأما كلام السادة الصوفية فى القرآن ، فهو من باب الاشارات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة ، وذلك من كمال الايمان ، ومحض العرفان ، لأنهم اعتقدوا أن الظاهر غير مراد أصلا ، وإنما المراد الباطن فقط ، إذ ذاك اعتقاد الباطنية الملاحدة ، توصلوا به إلى نفى الشريعة بالكلية ، وحاشا سادتنا الصوفية من ذلك ، كيف ؟ ؟ وقد حضوا على حفظ التفسير الظاهر ، وقالوا لابد منه أولا ، إذ لايطمع فى الوصول إلى الباطن قبل أحكام الظاهر ومن ادعى فهم أسرار

القرآن قبل أحكام التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب .

إلى أن قال : فلا ينبغى لمن له أدنى مسكة من عقل ، بل أدنى ذرة من إيمان ، أن ينكر اشتمال القرآن على بواطن يفيضها الحق سبحانه وتعالى على بواطن من شاء من عباده ، وياليت شعرى ! !

ماذا يصنع المنكر بقوله تعالى (وتفصيلا لكل شىء) وقوله : (مافرطنا فى الكتاب من شىء) ! !

ويا للعجب ، ! كيف يقول باحتمال ديوان المتنبي وأبياته المعانى الكثيرة : ولا يقول باشتمال القرآن الكريم وآياته ، وهو كلام رب العالمين :

(سبحانك هذا بهتان عظيم) بل ما من حادثة ترسم بقلم القضاء فى لوح الزمان إلا وفى القرآن العظيم إشارة اليها ، فهو المشتمل على خفايا الملك والملكوت ، وخبايا قدس الجبروت

وقد ذكر ابن خلكان فى تاريخه ، أن السلطان صلاح الدين لما فتح مدينة حلب ، أنشد القاضى محي الدين قصيدة بائية أجاد فيها كل الاجادة وكان من جملتها : ـ

وفتحك القلعة الشهباء فى صفر مبشر بفتوح القدس فى رجب

فكان كما قال : فسئل القاضى من أين لك هذا ؟ فقال : أخذته من تفسير ابن برجان فى قوله تعالى . (الم ء غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ء فى بضع سنين)

قال المؤرخ . فلم أزل أتطلب التفسير المذكور ، حتى وجدته على هذه الصورة وذكر له حسابا طويلا . وطريقا فى استخراجه ، وله نظائر كثيرة .

ومن المشهور استنباط ابن الكمال ، فتح مصر على يد السلطان سليم من قوله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »

فالانصاف كل الانصاف التسليم للسادة الصوفية ، الذين هم مركز للدائرة المحمدية ماهم عليه ، واتهام ذهنك السقيم فيما لم يصل لكثرة العوائق والعلائق اليه .

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

انتهى كلام الامام الألوسى رضى الله عنه ، الذى أعطانا فكرة صحيحة وصورة واضحة عن طريقة السادة الصوفية ، فى تفسيرهم للقرآن الكريم ، ولعمرى إن هذه أسرار وأحوال لايتذوقها إلا أربابها ، وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه ، ولا يضيرها قصور الأفهام والعقول عنها ، ولله درّ القائل :ـ

ما ضرّ شمس الضحى وهى طالعة   أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

مصادر التصوف

القرآن الكريم

من نور القرآن الكريم استمد التصوف فكرته ، وعلى هديه القويم ، وتوجيهه المستقيم بنى أساسه وقواعده . . والباحث المتأمل يجد التصوف مبثوثا فى آيات القرآن مستكنا بأصوله فى معالمه الواضحة ، وبيناته الصريحة ، نذكر أمثلة لذلك فيما يلى . —

قال الله تعالى . (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) . (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم . .)

فهم الصوفية من هاتين الآيتين وغيرهما أن الله تعالى هو الفاعل المطلق ، الذى تصدر عنه وتقوم به جميع أفعال العباد ، ولقد قالوا إن العبد من ربه سبحانه وتعالى بمثابة القلم من الكاتب الذى يمسك به ويحركه ، ويجرى به يده فيكتب مايشاء .

وعلى هذا الأساس قامت فلسفتهم فى التوحيد المطلق لله عز وجل ، والعقيدة الثابتة التى سار عليها أهل السنة والجماعة .

قال الله تعالى . « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم » « فأينما تولوا فثم وجه الله »

من هاتين الآيتين يتخذ الصوفية سندا يقيمون عليه مذهبهم فى تجلى الحق سبحانه فى مخلوقاته تجلى إحاطة وشمول .

يشهد بذلك آيات عظمته ودلائل سلطانه المتبرجة فى السماء والارض ، وما بينهما وما حولها مما نعلم ومالا نعلم ، وكل مافى الوجود يتمثل بعظمة الله ويسبح بحمده .

وقد استنبطوا من ذلك كله نظرياتهم القديمة التى ترمى إلى « وحدة الوجود » وغيرها مما استفاضت به كتبهم الصحيحة .

قال الله تعالى : « يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » .
وقال تعالى : « يسبحون الليل والنهار لايفترون » .

أثبتت الآيتان الكريمتان أن لله عز وجل عباداً ناجاهم الله فى فكرهم وكلمهم فى ذات عقولهم ، فقطعوا بالذكر والعبادة مراحل الحيـــاة ، وأقروا أعينهم بالخلوة والمناجاة ، حتى أصبحوا أعلام هدى ، ومصابيح دجى ، قد حفت بهم الملائكة ، وتنزلت عليهم السكينة .

فهل يلام السادة الصوفية إذا انتظموا فى عقدهم ؟؟ وانخرطوا فى سلكهم ، فكرسوا حياتهم للتقوى ، وتشبهوا بالملأ الأعلى من ملائكة الله المقربين فى دوام الذكر والتسبيح والعبادة ؟؟

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

هذه الآية الكريمة أصل من أصول الصوفية فى طريقتهم فى (الحب الإلهى) الذى أضفى على الوجود حلل الصفاء والمودة ، وجعلهم إخوة متحابين لا يمسهم نصب ولا تجافى بينهم عداوة . . أحبوا الله فأحبهم ورضوا عنه فرضى عنهم ، وتراحموا فيما بينهم لا لشائبة أو غرض ، بل كان أساسهم فيه طاعة الله ورسوله ، وذلك هو الحب فى الله الذى هو أوثق عرى الإيمان .

قال الله تعالى : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم) . (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) (وما بكم من نعمة فمن الله) . (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

قررت الآيات الكريمة فى صراحة ووضوح أن كل مايحبه العبد ينبغى أن يخرج عنه ابتغاء مرضاة الله ، وتعرضا لبره وإحسانه ، لأن كل شىء لله ومن الله ، ولا يبلغ العبد درجة عالية من الإيمان إلا بالإيثار على النفس حتى فى أحلك الظروف .

وأشد الأوقات . . وهذا كله مما ينطوى عليه التصوف ، ويهدف اليه الصوفية .

قال الله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير)

فما اصطلح عليه سادتنا الصوفية أن السالكين تتفاوت درجاتهم ومقامهم على حسب أعمالهم واجتهادهم ، لذلك قسموهم إلى العموم والخصوص وخصوص الخصوص

وهذا النظام البديع مقتبس من تلك الآية الكريمة التى قسمت أهل الجنة طوائف ثلاثا : (فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات)

قال الله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » . « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »

فهم الصوفية من هاتين الآيتين أن التقوى والعبادة سبيلان للعلم الباطن ، القائم على أساس إلهام القلب وإشراق الروح وصفاء السريرة .

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا » . « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . « فإذا عزمت فتوكل على الله » . « لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة » . « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » . « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد . كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

من هذه الآيات الكريمة وغيرها استمد الصوفية رضى الله عنهم مقاماتهم العابدة التى تلونت بها أحوالهم وأعمالهم ، وذهبوا فيها كل مذهب فى التوبة ، والصبر ، والتقوى ، والتوكل ، والاخلاص ، والمحاسبة ، والمجاهدة ، والزهد .

وكان هدفهم الأعظم الذى يرمون اليه ، وغايتهم الكبرى التى يسعون لتحقيقها هو تدعيم حياتهم الروحية التى وصلت قلوبهم بأسباب السماء ، وأشرقت فى نفوسهم ألوان من الأنس والصفاء ، والجلال والإشراق .

السنة الغراء

وجد التصوف فى حياة النبى ﷺ مصدره الثانى الذى استمد منه الزهاد زهدهم. واستق منه الصوفية أذواقهم ووجدوا فيه ما يؤيدون به مذاهبهم : ـ

كانت حياة الرسول ﷺ صورة كاملة للصوفى الحق ومثلا أعلى استهدفه رجال التصوف فى العصور المتتابعة فقد عاش ﷺ طيلة حياته فى روحانية ونقاء ، وفى زهد وتقشف . وكان ﷺ شديد الخوف والخشية . حتى إنه كان يستغفر الله ويتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة .

وكان يصلى كثيرا . ويقوم الليل إلا قليلا حتى تتورم قدماه . ويشفق عليه ربه الرحيم سبحانه وتعالى فيقول «طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» .

وقد روى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه . فقلت له لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . ؟ ؟ فقال أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا . ؟ ؟

وكان ﷺ خير الزاهدين فى الدنيا ، فهو الذى خيّر بين أن يكون نبيا ملكا وبين أن يكون نبيا عبدا فآثر أن يكون نبيا عبدا ، ليجوع يوما فيصبر : ويشبع يوما فيشكر ؟ ! .

ودخل عليه سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فبكى لما رأى رسول الله ﷺ قد أثر الحصير فى جنبه الشريف من طول ما نام عليه . وقد تذكر كسرى وقيصر وما هما فيه من عز باذخ ونعيم عظيم .. فقال له رسول الله ﷺ «هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا . ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا يوم القيامة» ..

وكان ينسلخ الشهر والشهران ولا يوقد فى بيته نار . ﷺ فقد

جاءت له الدنيا فأعرض زاهدا   يبغى من الأخرى المكان الأرفعا

ما جر أثواب الحرير ولا مشى   بالتاج من فوق الجبين مرصعا
من ألبس الدنيا السعادة حلة   فضفاضة لبس القميص مرقعا
وهو الذى لو شاء نالت كفه   كل الذى فوق البسيطة أجمعا

وفى هديه الكريم ما يحبب المسلم التقى فى الزهد فلقد روى ابن ماجه والطبرانى أن النبى ﷺ قال « ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس وروى ابن ماجه وأبو نعيم والبيهقى أن النبى ﷺ قال « إذا رأيتم الرجل قد أعطى تزهدا فى الدنيا . وقلة منطق . فاقتربوا منه فإنه يلقى الحكمة » .

وكان ﷺ دائم الذكر لربه يناجيه ويستهديه وجعلت قرة عينه فى الصلاة والمناجاة والخلوة والذكر والفكر . يجد فى كل ذلك برد الراحة والطمأنينة . وهو الذى قال فى حديث رواه الترمذى عن أبى الدرداء رضى الله عنه « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ؟ وأزكاها عند مليككم ! وأرفعها فى درجاتكم ! وخير لكم من إنفاق الذهب والورق ! وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ ! ! قالوا بلى : قال ذكر الله تعالى . فقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : ما شىء أنجى من عذاب الله من ذكر الله . .

وروى مسلم عن النبى ﷺ أنه قال « إن لله ملائكة سيارة فضلاء يتبعون مجالس الذكر . فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضا بأجنحتهم حتى يملأوا ما بينهم وبين السماء الدنيا » .

وفى تحنث الرسول ﷺ فى الغار وحده بعيدا عن الناس . مختليا بقلبه وروحه متأملا فى كتاب الوجود متصفحا معانيه . نشدانا لوجه الخالق العظيم . واستغراقا فى جلاله ومحبته . كل ذلك دعامات قوية . عززت مركز الصوفية فى خلواتهم التى انبثقت منها أنوار ساطعة أضاءت جوانبهم وملأت قلوبهم بالحكمة العالية وأحاطتهم بالتوفيق البالغ فى تصرفاتهم .

وفى أحاديث الرسول ﷺ نفحات صوفية شعت أنوارها على رجال أهل

المعرفة . من ذلك ما أخرجه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « إن الله تعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب . وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه . ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به . وبصره الذى يبصر به : ويده التى يبطش بها . ورجله التى يمشى بها . ولئن سألنى لأعطينه . ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

وفى هذا الحديث بيان لمبدأ طريق الصوفية ونهايته . حيث إنهم يبدؤن بالمجاهدة والعبادة التى تصل بهم إلى تطهير قلوبهم من كل ما يباعد عن الحق سبحانه وتحليتها بكل ما يقرب إليه ثم تنتهى بهم تلك المقامات والأحوال إلى درجة الفناء عن أنفسهم التى لها مكان القمة فى درجات الايمان .

وأخرج الترمذى رضى الله عنه . عن النبى ﷺ أنه قال « الكيس من دان نفسه . وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها . وتمنى على الله الأمانى » .

وهذا الحديث الشريف إشارة إلى تربية الوازع القوى والضمير الحى الذى ينحى باللائمة على النفس الأمارة بالسوء ويرقب تصرفاتها عن كثب فى جو من المحاسبة والحساسية . وتلك هى مقامات الصوفية ودرجات سلوكهم .

أخرج الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه ، فى حديث سؤال جبريل عن الإحسان . قال رسول الله ﷺ « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وذلك الذى أشار إليه الحديث من أصول الصوفية التى تهتف بكمال المعرفة وتنادى بدوام المراقبة للحق سبحانه فى الحركات والسكنات .

أخرج الشيخان عن أبى بن كعب رضى الله عنه عن ﷺ أن موسى عليه السلام قال للخضر « هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا » قال إنك لن تستطيع معى صبرا » . ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه لا ينبغى لك أن تعلمه . وأنت على علم علمك الله لا ينبغى لى أن أعلمه »

وهو يقرر علم الحقيقة وهو العلم الباطن . أو العلم اللدنى الخاص بأرباب المعرفة والمقامات . .

هذا : وقد استفاضت كتب السنة الصحيحة بالأحاديث الشريفة التى تصور لنا مناهج السادة الصوفية ومذاهبهم . ومهما يكن من شىء فان الصوفية رضى الله عنهم تتبعوا سيرة الرسول الأعظم ﷺ واقتفوا أثره فى كل أحواله الشريفة مما كان له أعمق الأثر فى توجيههم تلك الوجهات الروحية الخالصة . .

حياة الصحابة رضى الله عنهم

الصحابة الكرام رضى الله عنهم : هم الرعيل الأول من رجال التصوف الذين كانوا خير قدوة ، وأعظم أسوة لمن أتى بعدهم من الصوفية .

أبو بكر رضى الله عنه : ـ وهو الخليفة الأول لرسول الله ﷺ ، الذى قد رجح إيمانه إيمان الأمة ؛ ومع ذلك يقول (لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى رجلى فى الجنة ، والأخرى فى النار) .

ولقد تمثل زهده البالغ فى خروجه عن جميع ماله فى الهجرة النبوية ، ولما سأله النبى ﷺ عما تركه لأهله ؟ أجاب بقوله : « تركت لهم الله ورسوله ! ! »

وكان رضى الله عنه يقول (من ذاق من خالص المعرفة شيئا شغله ذلك عما سوى الله ، واستوحش من جميع البشر)

ومن خوفه رضى الله عنه ماروى من أنه مرَّ على طائر واقع على شجرة فقال : (طوبى لك ياطائر تطير فتقع على الشجر وتأكل من الثمر ، وليس عليك حساب ولا عقاب ، ياليتنى كنت مثلك ! والله لوددت أنى شجرة إلى جنب طريق فمر على بعير فأخذنى فلاكنى ثم ازدردنى ، ثم أخرجنى بعرا ولم أك بشرا ! !)

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ـ لم يكن أقل شـأنا من صاحبه فى الحياة ، الروحية الصافية ، وحسبه أن النبى ﷺ قال فى شأنه (كان فى الأمم محدثون ومكلمون ، فان يك فى هذه الأمة فعمر) والمحدث الملهم من درجات الصديقين .

كان رضى الله عنه يلبس الثوب المرقع من اثنتى عشرة رقعة ، ويأكل الخبز دون إدام ، حتى تغير لون بطنه ، وتأخر يوما عن المسجد فقال له أصحابه . ما حبسك عنا ياأمير المؤمنين ؟ فقال ثوبى كان يغسل وليس لى سواه ! !

ولقد كان شديد الخوف من ربه ، ويتجلى ذلك فيما روى أنه لما حضرته الوفاة غشى

عليه ، فأخذ ابنه عبد الله برأسه فوضعه فى حجره ، فقال له عمر . ضع رأسى بالأرض لعل الله يرحمنى ، فمسح خديه بالتراب وقال . ويل لعمر إن لم يغفر له ! !

فقال له ابنه : وهل لخدى والارض إلا سواء يا أبتاه ؟ ؟ فقال ضع رأسى بالأرض كما آمرك ، فاذا قضيت فأسرعوا بي إلى حفرتى وإنما هو خير تقدمونى اليه أو شر تضعونه عن رقابكم ثم بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال خبر السماء ! ! لا أدرى إلى جنة ينطلق بى أو إلى نار ! !

عثمان بن عفان : ـ كان رضى الله عنه دائم الفكرة ، كثير الصلاة بالليل ، دؤوبا على قراءة القرآن ، وكان حافظا ، وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف ، فقيل له فى ذلك فقال إنه مبارك جاء به مبارك ، وكان يقول (إنى لأكره أن يأتى على يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله (يعنى المصحف)

ولما قتل رضى الله عنه كان المصحف فى حجره ، وسال الدم على المصحف عند قوله تعالى « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »

ولقد كان رضى الله عنه حييا حتى قيل « رق فنحن نجزع أن يذوب » ، ولم يمنعه غناه أن يكون من الزاهدين ، فقد أثر عنه أنه قال « لو لا أنى خشيت أن يكون فى الاسلام ثلمة أسدها بهذا المال ماجمعته »

على بن أبى طالب . ـ كان رضى الله عنه لسان الصوفية الفصيح ، يعبر عن المعرفة والمقامات بأسمى ما يصل اليه بليغ أو أديب .

وروى عنه أنه قال « الخير كله مجموع فى أربعة ، الصمت ، والنطق ، والنظر ، والحركة ، فكل نطق لا يكون فى ذكر الله تعالى فهو لغو ، وكل صمت لا يكون فى فكر فهو سهو ، وكل نظر لا يكون فى عبرة فهو غفلة ، وكل حركة لا تكون فى تعبد الله ، فهى فترة ، فرحم الله عبدا جعل نطقه ذكرا ، وصمته فكرا ، ونظره عبرة ، وحركته تعبدا ، ويسلم الناس من لسانه ويده .

كان رضى الله عنه طويل الفكرة ، غزير العبرة ، يعجبه من الطعام ماخشن

ومن اللباس ما قصر ، يحب المساكين ، وكانت إذا غارت نجوم الليل يتملل تملل السقيم ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول « يادنيا غرى غيرى ألى تقربت هيهات هيهات قد باينتك ثلاثا فأمرك حقير ، وأجلك قصير آه من قلة الزاد وبعد الطريق »

ولبث رضى الله عنه شهرا كاملا ولم يكن فى يده سوى سيفه ودرعه وقطيفة إن افترشها مع زوجه فاطمة رضى الله عنها لا تغطيهما . وإن تغطيا ، بها لم يجدا فراشا لهما

أهل الصفة : ـ وهم فريق من فقراء المهاجرين والأنصار تجردوا من مظاهر الحياة ، ورغبوا عن الدنيا وأقبلوا على الله يقرؤن القرآن فتخشع قلوبهم ويذكرون الله فتفيض عيونهم بالدمع خشية ورهبة ، ويعبدون الله بشوق ولهفة ولذة ، وكانوا كما وصفهم أبو نعيم بقوله : ـ

(هم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شىء من العروض ، وعصمهم من الافتتان بها عن الفروض ، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء ، لا يأوون إلى أهل أو مال ولا تلهيهم عن ذكر الله تعالى تجارة ولا مال ، لم يحزنوا على مافاتهم ، ولم يفرحوا إلا بما أيدوا به من اليقين)

وبعد : ـ فنخلص من ذلك كله إلى أن التصوف قد وجد أصوله الأولى فى كتاب الله الكريم ، ثم فى حياة الرسول ﷺ التعبدية ، وفى تنسك الصحابة وزهدهم .

كما ينتهى بنا القول إلى أن حياة الصوفية ومنازعهم فى العبادة ومدارجهم فى السلوك ، كل أولئك ليس فى الحقيقة إلا ترديدا ، لهذا اللحن الروحى الرائع الذى تغناه الرسول ﷺ فى حياته ورتله معه أصحابه رضى الله عنهم هذا الترتيل الجميل الذى كان له صداه القوى فى نفوس من استمع اليه واستجاب له من رجال التصوف الذين سجل لهم التاريخ أنصع الصفحات .

التصوف بين الماضي والحاضر

من مفاخر السلف

لقد مر بالتصوف عصور ذهبية سجلت نموه وازدهاره . وأكبر التاريخ فيها مواقف رائعة لرجاله السابقين فى حياتهم التعبدية الزاهرة . . .

ولقد أفصح عن ذلك حكمهم الخوالد ، التى أرسلوها نجوما باقية فى سماء التصوف وشعاعا نورانيا ينسكب بالهدى واليقين .

وسنقف على شىء من تاريخهم المجيد . ومقاماتهم العالية . مما نحس معه ببريق تقواهم ينفذ إلى أعماقنا . ونشعر بخشوعهم يسرى فى حواسنا . وما ذلك إلا لأنهم أخلصوا لله قلوبهم وأصفوه حبهم ومناجاتهم . فخلدهم الله فى الأسماع ذكرا طيبا . وفى القلوب تقديرا وإكبارا . . .

أويس القرنى :ـ أفضل التابعين . شرفه رسول الله ﷺ بالمنزلة العالية . حيث أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأن يستمنحه الدعاء بالمغفرة . لأنه طيب القلب . حبيب الرب ، مرجو الاجابة . ومع ذلك فهو مجهول فى الأرض . معروف فى السماء .

ولما مثل عمر بين يديه وسأله أن يدعو له . قال له أويس ناصحا له : يا عمر « ابتغ رحمة الله عند طاعته . واحذر نقمته عند معصيته . ولا تقطع رجاءك عنه خلال ذلك » .

ومن نفحاته الصوفية رضى الله عنه : ما روى أنه كان جالسا وحده ثم أتاه هرم بن حيان . فقال له أويس : ما جاء بك ؟ قال جئت لآنس بك . فقال أويس . ما كنت أرى أن أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره .

الحسن البصرى :ـ كان رضى الله عنه يقول « إن لله عز وجل عبادا كمن رأى أهل الجنة فى الجنة مخلدين . وكمن رأى أهل النار فى النار مخلدين . قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة . حوائجهم خفيفة . وأنفسهم عفيفة . صبروا أياما قصارا تعقبها

راحة طويلة . أما الليل فصافة أقدامهم . تسيل دموعهم على خدودهم . يجأرون إلى ربهم . ربنا . ربنا . وأما النهار فحلماء علماء . بررة أتقياء . كأنهم القداح . ينظر اليهم الناظر فيحسبهم مرضى ، وما بالقوم مرض ، أو خولطوا ، ولقد خالط القوم من حبهم لربهم وذكر الآخرة أمر عظيم .

عطاء بن أبي رباح : قال رضى الله عنه : (خرجنا مع عتبة الغلام ، وفينا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور العشاء ، قد تورمت أقدامهم من طول القيام ، وغارت أعينهم فى رؤوسهم ، ولصقت جلودهم على عظامهم ، وبقيت العروق كأنها الأوتار ، فبينما هم يمشون إذ مر أحدهم بمكان ، فخر مغشيا عليه ، فجلس أصحابه حوله يبكون فى يوم شديد البرد وجبينه يرشح عرقا ، فجاءوا بماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره ؟ فقال إنى ذكرت أنى كنت عصيت الله فى ذلك المكان ! !

رابعة العدوية : ـ سأل الثورى رابعة العدوية رضى الله عنها قائلا : لكل عبد شريطة ، ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقالت : ماعبدت الله خوفا من الله فأكون كالأمة السوء ، إن خافت عملت ، ولا حبا للجنة ، فأكون كالأمة السوء إن أعطيت عملت ، ولكنى عبدته حبا له وشوقا اليه ! !

ومن كلامها رضى الله عنها فى حقيقة حب العبد لربه : ـ

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

ابراهيم بن أدهم : ـ سئل رضى الله عنه : ما بالنا ندعو الله فلا نجاب فأجاب بقوله (لأنه دعاكم فلم تجيبوه) ومن كلامه رضى الله عنه (لو علم الملوك مانحن فيه من النعيم والسرور ، ولذة العيش وقلة التعب ، مع جمال الخلوة والجلوة لجالدونا عليه بالسيوف .

مالك بن دينار . ـ قال رضى الله عنه (بينما أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجويرية متعبدة متعلقة بأستار الكعبة . وهى تقول يارب كم شهوة ذهبت لذاتها وبقيت

تبعاتها ؟ يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار ؟ وتبكى ، فمازال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، فلما رأيت ذلك وضعت يدى على رأسى صارخا أقول ثكلت ما لكا أمه)

أبو يزيد البسطامى . ـ كان يقول رضى الله عنه (لله عباد لو حجبهم فى الجنة عن رؤيته لاستغاثوا كما يستغيث أهل النار من النار !)

شيبان الراعى . ـ حكى ابن عطاء الله السكندرى فى كتابه التنوير أن الامام الشافعى رضى الله عنه وأحمد بن حنبل رضى الله عنه كانا جالسين إذ أقبل شيبان الراعى رحمه الله فقال أحمد للشافعى . أريد أن أسأل هذا ؟ فقال الشافعى . لا تفعل فقال . لابد من ذلك ، فقال ياشيبان . ما تقول فيمن نسى أربع سجدات من أربع ركعات ؟ فقال يا أحمد . هذا قلب غافل عن ذكر الله عز وجل يجب أن يؤدب حتى لا يعود إلى مثل ذلك ، فخر أحمد مغشيا عليه ثم أفاق ثم سأل فقال : ماتقول فيمن له أربعون شاة ما زكاتها ؟ فقال على مذهبه أو مذهبكم ؟ فقال أحمد . هل فى هذا مذهبان ؟ قال نعم ، أما على مذهبكم ففى الأربعين شاة شاة ، وأما على مذهبه فالعبد لا يملك مع سيده شيئا . . ! !

السرى السقطى . ـ كان رضى الله عنه من شدة خوفه من عذاب الله يقول (إنى لأنظر إلى أنفى كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهى !)

عبد العزيز الدباغ : ـ كان رضى الله عنه أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك فقد أفاء الله عليه من المواهب الفيضية مايثير الدهشة والعجب ! ! ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

كان رضى الله عنه يميز بين الحديث الصحيح من غيره ، فسأله تلميذه أحمد بن المبارك رضى الله عنه عن السبب ؟ فقال : « إن الشخص فى الشتاء إذا تكلم خرج من فمه الفوار ، وإذا تكلم فى الصيف لا يخرج من فمه فوار ، وكذلك من تكلم بكلام النبي ﷺ خرج النور مع كلامه ، ومن تكلم بغير كلامه خرج الكلام بغير نور ،

وقال أيضا (إن السراج إذا نغذ قوى نوره ، وإذا ترك بقى على حالته ، وكذا حال العارفين إذا سمعوا كلامه ﷺ تقوى أنوارهم ، وتزداد معـــارفهم ، وإذا سمعوا كلام غيره بقوا على حالتهم)

ومن روائع حكمه رضى الله عنه « لو لم يخلق الله جنة ولا نارا لتبين من يعبده ممن لا يعبده ، ولكانت عبادة الذى يعبده خالصة لوجهه الكريم ، وحينئذ تحصل المعرفة به تعالى على وجهها الكامل لمن عبده ، ولكن الناس لما سمعوا بذكر الجنة والنار ، تفرقت أغراضهم نحوهما فضلوا عن السبيل ! »

هذا .. ولو قرأنا تراجم السادة الصوفية ، واستقينا أخبارهم من المصادر الصحيحة وتتبعنا سيرتهم الكريمة فى مناقبهم ومؤلفاتهم ، لقدرناهم حق قدرهم ، ولأكبرنا فيهم صفات النبل والفخار ، وسمات الإخلاص والايمان ، رضى الله عنهم وأكرمنا بكراماتهم وحشرنا فى زمرتهم .

◆◆◆

تدهور بعد ازدهار !!

بعد هذه الحياة الزاهرة التى نما فيها التصوف وازدهر ، وشب وترعرع ، مرت حقبة من الزمن أصاب التصوف فيها كثير من الوهن والضعف ، وامتزج بعناصر الغرور وحب الظهور ، والتطلع إلى الحياة المادية بالسعى وراء الزلف عند أصحاب الجاه والسلطان ، وخالف كثير من سالكى الطرق الصوفية ما سار عليه السلف الصالح من سنن الزهد والعبادة وأصول المجاهدة والرياضة ، وقصروا أمرهم على إتاوات تجمع ، وموائد تقام ، ومواكب تسير ، وأعلام تنصب ، وألقاب تنال ، ومظاهر وشكليات لا تتصل بصميم الطريق ، ولا ترتبط بالجوهر ، ولا تحمل طابع التصوف الاسلامى الصحيح .

وكانت تلك الأمور من أقوى الأسباب فى مهاجمة التصوف ورجاله ، إلى حد أن صور بعضهم التصوف بين ماضيه وحاضره حيث كان فى العصر الأول نوراً وإيمانا يتذوقه المحب ، وينعم به العابد ، ثم انتهى أمره إلى التدهور والتأخر فقال :-

(كان التصوف حالا فصار كارا ، وكان احتسابا فصار اكتسابا ، وكان استتارا فصار اشتهارا ، وكان اتباعا للسلف فصار ابتياعا للعلف ، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور ، وكان تقشفا فصار تكلفا ، وكان تخلقاً فصار تملقا ، وكان سقيا فصار لقيا ، وكان قناعة فصار لجاعة ، وكان تجريداً فصار تريداً !)

ولعمرى إن ذلك الوصف - مع ما فيه من المبالغة والاسراف - يكشف لنا عن الضعف الذى شوه وجه التصوف الأمر الذى يثير الاشفاق والخوف من المصير الذى أوشك أن يوقعه أهله فيه .

وليس معنى هذا أن الحياة قد أقفرت من رجال التصوف المخلصين ، فإن هناك كثيرا من أصحاب النفوس الصافية والقلوب الطاهرة المؤمنة الذين يعيشون على سيرة سلفهم من العباد والزهاد فى ظلال المجاهدة والاخلاص ، والمعرفة واليقين .

بيد أنهم يؤثرون التستر والاختفاء ، ويربأون بأنفسهم عن الظهور والادعاء .

هذا ولو أننا شجعنا مبادىء التصوف ودعونا الناس إلى تطبيقها ، ووجهنا جهودنا إلى تقويم المعوج فيها ، وإصلاح الفاسد منها ، لضمنا لأمتنا مجتمعا سليما طاهرا يعمل فى إخلاص وصفاء ، ويعيش فى طهارة ونقاء ، ولأشرقت الأرض بنور ربها من جديد ، وغمرتها موجة الاصلاح والتجديد ، وإننا اليوم فى عصر تكاثفت فيه الظلمات ، وأدلهمت فيه الخطوب ، وتصارعت فيه الأفكار والمبادىء ، وطغى فيه سلطان المادة على سلطان الروح ، فهل لرجال التصوف أن ينشروا مبادئهم السليمة التى تعيد الغضارة إلى القلوب ؟ والنضارة إلى النفوس ؟ والسلام إلى الناس ؟ واليقين إلى الحيارى المتعبين ؟ ؟

هل لهم أن يفتحوا مدارسهم الروحية ذات المناهج العالية التى تخرج لنا أمثال ابن عطاء ، وأبى يزيد ، وابن العربى ، والغزالى ؟ ؟ فنستعيد بذلك تلك الأنغام والألحان ، وهذه الوثبات والنشوات والمناجاة والخلوات والالهامات والمكاشفات التى تسموا فوق التصور والخيال ! !

هل لهم أن يعمروا قلوبهم بمعرفة الله ؟ ويغمروا نفوسهم بمحبته الصادقه ؟ التى تفيض عليهم الاشراق والهبات ؟ ؟

هل لهم أن يصفوا أقدامهم فى وحشة الليل ويترسموا سنن ابن أدهم والفضيل ؟ ويقتفوا أثر السرى والجنيد ، ويتعرفوا إلى أحوال الكرخى وأبى يزيد ؟ ؟

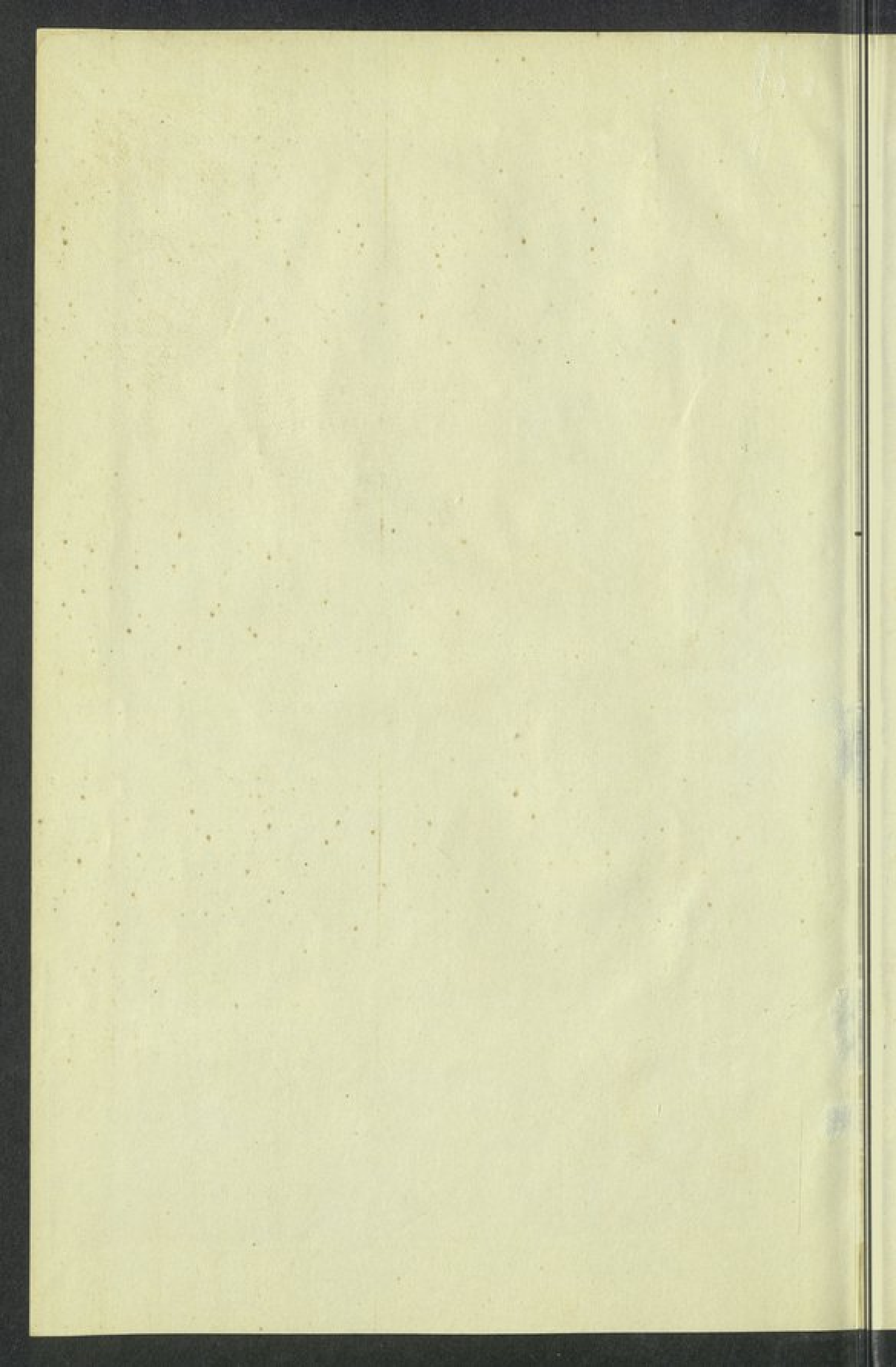
هل لهم أن تحلق أرواحهم فى نور الصفاء ؟ وتذوق من رحيق الرضا ؟ ويتركوا دنيا الملذات والشهوات .

وأخيرا . . هل لهم أن يهتفوا بأن كل شىء لله ومن الله ؟ وأن الحياة طابعها الرحمة ، ودستورها المحبة ؟ وهدفها العبادة ؟ ؟

هذه آمالى وأمانى أرفعها إلى الله العلى القدير أن يفتح قلوبهم لها ، ويشرح صدورهم بما انطوت عليها ، وما ذلك على الله بعزيز إنه نعم المولى ونعم النصير والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه وسلم . . ؟

فهرس الكتاب

تمت




AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت